المعرفة

الجزء الخامس
السنة الأولى



١٢٨ صفحة ٣٠ مليما

(منظر جميل لمدفن « تاج محل » بأكره بالهند وهو إحدى عجائب الدنيا)

أول سبتمبر سنة ١٩٣١ — الجـــزء الخامس
ربيع الثانى سنة ١٣٥٠ — الســـنة الأولى

المعرفة

مجلة — شهرية — جامعة

لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول

عبد العزيز الإسلامبولى

شعارها : اعرف نفسك بنفسك

من جوامع الكلم

بين الدين والعلم

للمرحوم قاسم بك أمين

قال المرحوم قاسم بك أمين شارحاً مصدر الخلاف بين رجال الدين وأهل العلم :

تعصب أهل الدين وغرور أهل العلم هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم . وليس بصحيح أن يوجد بينهما خلاف حقيقى لا فى الحال ولا فى الاستقبال، ما دام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء .

فمهما كثرت معارف الانسان لا تملأ كل فكره — بعد كل اكتشاف يتحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر ، وفى نهاية كل مسألة يحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها .

الآن وغداً يشتغل عقل الانسان بالعلم أى بمعرفة الحوادث الثابتة ولا يمنعه ذلك من التفكر فى المجهول الذى يحيط بها من كل طرف ، هذا المجهول الذى كان ويكون بعد الذى لا قرار له ولا حد لا فى الزمان ولا فى المكان هو دائرة اختصاص الدين .

وقال فى الايمان :

ليس الايمان مسألة عقلية أو علمية فانا نرى بين العلماء من يصدق كما نرى بين الجهلاء من يكذب ، وانما الايمان مسألة شعور صرف . شعور يجعل صاحبه يرى نفسه محتاجاً اليه الى حد أنه يستحيل عليه أن يعيش بدونه .



على سطح بحيرة نايني في وسط جبال الهند وعلى ارتفاع ستة آلاف قدم من سطح البحر



فى
الشرق الاقصى

يلاحظ أن الغلو فى الملبس والتزين آخذ حده فى الشرق الأقصى وترى فى الصورة التى إلى يسار هذا الكلام، صورة إحدى أميرات منشوريا بالصين الشمالية



أمير من أمراء منشوريا وهو زوج الأميرة التى ترى صوتها فى أعلى

عملة من الصدف : عملية مالية فى بابوا

فى جزيرة روسل إحدى جزر لويزيانا يتعامل السكان بعملة معينة هى الاصداف التى تستخرج من البحار كما يوجد فى الجزيرة رجال يخصصون وقتهم للعمليات المالية ويشبهون عندنا (السماسرة) وترينا الصورة حالة عقد قرض من فريق لآخر فتعد وليمة خاصة ويجتمع الفريقان فى شكل دائرة . وفى أثناء اعطاء النقود يلمسها أحد السماسرة ليتأكد من صحتها.

حرية الرأى وأنصار الجمود

تصل إلى «المعرفة» رسائل متعددة ، وشكاوى متباينة ، ليس إلى جمعها فى نقطة واحدة من سبيل . فهذه الرسائل أو تلك الشكاوى بمعنى أصح ، لا تتفق فى مصدر الشكوى أو تلتئم فى الباعث عليها مطلقاً ، كما أن عقدها لا ينتظم بحال ما فى سمط واحد من التفكير .

على أن أشخاص مرسليها على تعددهم وتباينهم ، لا يعدو الواحد منهم أحد شخصين : شخص يتهمنا بالجمود فى الرأى ، والتعصب للدين ، والتمسك بالقديم ؛ وليس لنا أن نناقش هؤلاء بعد أن كتبنا «كلمة المحرر» التى افتتحنا بها الجزء الأول من هذه المجلة ، وشرحنا بها كل الأغراض التى أسست لأجلها ؛ كما أنه ليس من حاجة أيضاً لمناقشتهم مرة ثانية ، بعد أن رأوا الأجزاء التى صدرت قبل هذا الجزء وعددها أربعة كفيل فى نظرنا ـ على مانعتقد ـ برد ما يوجه الينا من تهم الجمود ، والتعصب ، والتمسك بالقديم ، وما أظننى ـ بعد أن أفسح صدر المجلة لكل رأى مخالف لنا ـ بجامد أو متعصب كما يزعمون .

على أن المضحك فى الأمر حقاً ، هو أن تجد الى جانب هؤلاء فئة من الناس تتهمنا بالمغالاة فى الجديد وهذه يتزعمها بعض السوريين الدخلاء ، وآسف أن أقول السوريين الدخلاء ، لا السوريين الحقيقيين الذين أحبهم وأجلهم ، وأرى كمصرى مفروض فيه العمل لخدمة وطنه ، أن يعمل معهم ومع كل شرقى بقدر الطاقة ، وبقدر مايسعه جهده الضئيل فى سبيل «الرابطة الشرقية» و« الوحدة العربية » إذ بغيرهما معاً ، أو بغير احداهما على الأقل لا يتم لمصر ما ترجو من زعامة حقة ونهضة قوية .

أتعرف ماذا يقول هؤلاء الأناسى ؟ يزعم أولئك الدخلاء ، ومن لف لفهم من مواطنى المصريين ، فى غير حق ولا رحمة ، أن مجلة « المعرفة » تعمل دائبة على نشر الآراء الصوفية المتطرفة والبدع الدينية والأفكار الفلسفية الالحادية .

يا سبحان الله ؟ ألكم بعد هذا عقول تفهم حتى نستطيع مخاطبتكم ؟ إن كان ذلك ، ولا أظنه ، فلتعلموا إذن أنكم لا تؤثرون فى طفل صغير فضلا عن انسان مفكر ، فما بالكم والمجلة فى أيدى القراء المختلفى المشارب والآراء ؟ أهؤلاء أقل منكم فهماً وتدبراً ؟ ثقوا بأنكم تعلنون عن « المعرفة » أقوى إعلان ، فأكثروا أكثروا ، فأنا فى حاجة إلى شىء

من هذا ليس بالقليل ، وأنتم دهاقنة الزمن فى استلاب الأموال ، والتفنن فى الاعلان عما تعملون باسم الدين ظلماً ، ألا بارك الله فيكم تعملون على نشر مجلتنا ، ولا بارك الله فيكم تعملون على نشر الكذب والبهتان . على أنا لن نقيم لكم بعد الآن وزناً ، وبحسبنا أن نأخذ فيما نحن بصدده من البحث فى حرية الرأى ، لعلكم تتعظون .

فى طبيعة الانسان من يوم وجد نزعة وثابة إلى الأفضاء بما يختمر فى ذهنه من فكرة . هذه الفكرة ، هى عمل من عمل العقل الذى هو بصيص من نور الله محال أن تقف فى وجهها قوة من قوى الطبيعة على اختلاف درجاتها وتباين أنواعها .

قد تكون الفكرة مما تأباه أنظمة الدولة ، أو مما يخالف التقاليد الموروثة ، أو تباين العرف المتبع ، لكن ليس معنى هـذا أن الفكرة تقهر وتموت ، بل تحبس فى نفس صاحبها ، وتظل مضغوطا عليها تحت طبقات ذهنه ، تحاول الخروج آنا ، والانفلات آونة . حتى تجد لها منفذا ، ويجد صاحبها الفرصة صالحة لاعلانها ، فتنطلق انطلاق السهم .

هنا تعمل الفكرة عملها ، وتحتل من النفوس ملاءمتها ، ومن ثم تخلق من أصحاب تلك النفوس أنصارها ، يدافعون عنها ويستشهدون ـ ولو كانت خطأ ـ فى سبيلها . والزمن وحده هو الكفيل بالحكم على صلاحها أو عدمها ، وتقرير بقائها أو جمودها . وذلك يخالف كل المخالفة الفكرة المباحة غير الصارخة ، فان نجاحها يتوقف على ما لقيمتها من صواب فحسب.

وغريب جداً أن نرى جل الفكر الثائرة ، وأعنى بها تلك المخالفة للعرف ، أو المغايرة للتقاليد يقدر لها البقاء وينقل أصحابها من سجل الفناء الى سجل الخلود .

دليلنا على ذلك ، ما نراه من الخلود الملازم للفكرة الدينية التى نستطيع أن نسمى أصحابها ودعاتها ـ بحق ـ ثوار الفكر قبل إعلان فكرتهم ـ قادته ـ بعد نجاح تلك الفكرة .

أليس الأنبياء (صلوات الله عليهم) كانوا ثوارا على تقاليد ذويهم وأممهم وهدامين لمعتقدات آليهم وأفكار بيئاتهم ، فلما أن تحققت ثوراتهم الفكرية ، وصحت دعاواهم الدينية ، صاروا قادة الفكر فى نظر العالم اجمع ؟ ؟ ؟ أو ليست هذه غاية الخلود ؟

أولئك الذين قدر لأسمائهم أن تسجل فى سجل الخلود على مر الحقب وتوالى العصر ، هم بأنفسهم الذين كانوا يرمون بالكفر آنا وبالزندقة آنا آخر ، وهم بأنفسهم من كانوا موضع اضطهاد مغايريهم بل واحتقار المجتمع كله لهم ، لا لشىء سوى ثورتهم على القديم . وها هم بأنفسهم الآن مصابيح النور الالهى .

لنخرج عن دائرة الأنبياء ولنستمع للتاريخ الذى يحدثنا عن كثير من الأفراد راحوا ضحية الحرية الفكرية . . . حيث أعدم من أعدم ، وأحرق من أحرق ، وعذب من عذب ، كل ذلك فى سبيل القضاء على فكرتهم التى أبت الاذعان والارتضاء بغير الزمن حكمًا ، والذى أراد الزمن إلا إنصاف محتكميه على خصومهم فى أغلب الأحايين .

هذا سقراط الفيلسوف اليونانى العظيم ، قدم للمحاكمة أمام مجلس أثينا الأعلى بجريرة الخروج على الناموس ، ومخالفة التقاليد الوراثية ، ما كانت جريمته فى الحقيقة سوى بث تعاليمه الشريفة فى نفوس تلاميذه الاطهار ، كان نصيبه بسببها الحكم عليه بتجرع السم بين أولئك التلاميذ ، لكنه مات مرتاح الضمير هادئ النفس يدلك على ذلك قوله وهو يدافع عن نفسه أمام مجلس الاتهام .

« إن إنسانًا بالغًا ما بلغ من القوة ، لا يستطيع بحال ما أن يملى إرادته على آخر أو يمنعه الايمان بما يعتقد والتفكير كما يود . إذا كان الانسان متمشيًا مع منطق عقله مستمعًا لنداء ضميره فانه يستطيع أن يعيش فى عزلة منفردة فى غير حاجة الى رضاء الناس أو المجتمع ، ولن يصل الانسان لنتائج صحيحة مطلقًا ما لم يفحص المسائل ما لها وما عليها ، ولذا فانه يجب على الحكومة ألا تتدخل فى مناقشات الناس بعضهم مع بعض » .

تلك بعض أقوال سقراط التى أثرت فى نفوس أعضاء المجلس لدرجة أن ساوموه على الترضية بالتسوية بينه وبين مخالفيه اذا هو وعدهم - على الأقل - بالكف عن نشر تلك التعاليم . لكنه أبى إلا أن يكون حرًا فقال :

« كلا . دعونى وضميرى الذى ينادينى من أعماق نفسى ، لألقن الناس طريق الحكمة والمعرفة الصحيحة ، وما دامت هذه هى بغية ضميرى ، فسأظل أعلم الناس مصرحًا بما فى نفسى دون أن أقيم وزنًا لما يحدث »

وهاك مثلا آخر . فهذا جاليليه العالم الايطالى الفلكى الذى أخرج كتابًا يشرح فيه نظرية حركة الارض حول الشمس ، فانه قدم بسبب ذلك الكتاب الى مجلس الكنيسة الاعلى متهمًا من الكرادلة بالهرطقة (أى الكفر) وكانت نتيجة محاكمته أن اضطره المجلس إلى الاعتراف بالخطأ أمام الكنيسة وعلى ملأ من تلاميذه وأتباعه ، لكنه ما لبث أن خرج من الكنيسة حتى قال « ولكن الأرض تدور » فكان

أن قبضوا عليه فى الحال ، وزجوا به فى السجن (برواية بعض المؤرخين) ، وأحرقت جثته (برواية آخرين).

لكن هل هذا السم الذى تجرعه سقراط ، أو ذلك العقاب الذى نزل بغاليليه أمات الفكرة أومنع انتشارها ، أوحرم كليهما شرف الخلود ؟ كلا ، لقد كان ذلك الاضطهاد سبباً لاستشهاد الكثيرين فى سبيل الدفاع عن الفكرة ، حتى أصبحنا نرى تعاليم سقراط تعلم فى أكبر الجامعات ، وكذلك قل عن تعاليم غاليليه التى أصبح رجال الدين أنفسهم - يتخذون منها ومن كلمته (ولكن الأرض تدور) رداً على مخالفيهم . أليس هذا هوالخلود بعينه ؟

لست أريد من كل ما تقدم ، سوى القول بأن خير حكم يفصل فى فكرة ما إنما هو الزمن وحده ، وإذن فالفكرة لاتموت بموت صاحبها ، بل ثمة من يقوم بعده لنصرتها فاذا مااستشهد فى سبيلها فثم آخر ، وثمة آخرون وهكذا .

وبذلك تظل الفكرة حية نامية يساعدها مبدؤها المكفول لها بما فى الانسان من نزعة التوثب الى الحق . ولا تستطيع قوة ما — بالغة ما بلغت — أن تقضى بالجمود عليها بل إن سنن الكون لتجتاح تلك القوة اجتياحاً ، وتأتى عليها حتى لا تبقى ولا تذر ، متمشية مع سنة التطور بخطوات سريعة متزنة ، ولذلك فانها تسخر أمثال أولئك القادة ليرفعوا صوت الحق قائدين أممهم الى طريق الصواب ومخلصيهم من بين براثن الجهل والانحطاط والتقهقر .

وفى المثلين السابقين — ومن أمثالهما كثير — دلالة واضحة على صدق ما نقول ، ولكنا نريد أن ننبه القارئ الى أن هذا الاضطهاد كان يحدث فى العصور المظلمة ، التى كانت الكلمة الواحدة فيها ، كافية لازهاق أرواح الآلاف بله الملايين .

أما الآن وقد سار الزمن الى الرقي ، فقد أصبحنا نرى الرجل — وعلى الأخص فى الأمم المتحضرة - يقول قالته وهو محقون الدم ، آمن على نفسه وعياله ، مرتاح الى مخالفيه فى الرأى ومباينيه فى المعتقد . وها نحن نرى الآن اعترافاً بقدسية العقل ، وإطلاقاً للحرية بلا قيد ولا شرط ، حتى لتكاد تنقلب فى بعض الأحايين الى غير ما وضعت له .

ولست بهذا أدعو إلى إطلاق الحرية بلا قيد ولا شرط ، بل لست أطمع فى هذه الحرية بلا قيد ولا شرط ، وإنما أريد أقل من هذه بكثير جداً ، أريد كما يريد كل مخلص لدينه

ووطنه ـ أن تكون حرية البحث العلمى ، مما لا تسبب لصاحب البحث رمى فئة من الناس له بالكفر والزندقة ، ودينا يأمرنا باتباع العقل وتأويل النقل على مقتضاه إذاما تعارض العقل والشرع .

نريد ألا يستغل نفر من الناس حداثة فكرة من الفكر ، أو يستثمر جدة بحث من البحوث ، لقضاء أغراض ذاتية ، تمليهاعليهم رؤوس تدور مع الريح أينما تهب .

نريد ألا تعتدى طائفة من الناس تفرض ولايتها على الدين ظلماً . وأقول طائفة ، بل طائفة صغيرة جداً ، فان اكثر علمائنا ولله الحمد ذوو حكمة وتدبير ، وأصحاب عقول راجحة التفكير . وانما أقصد نفراً قليلا لابد من وجوده ، ليميز الصالح من الطالح ، ويعرف الطيب من الخبيث ، فبضدها تتميز الاشياء .

وأقصد طائفة أخرى ، تلك طائفة المتمشيخين من المتصوفة (لا الصوفية) وهؤلاء لا يقلون عن أولاء جرماً ونكراً ، ونحن نريد أن لاتريدانا على أن نفكر بعقولهم هم لا بعقولنا نحن ، ونأخذ بظنون أوهامهم ، والله تعالى يقول وقوله الحق «إن يتبعون إلا الظن وان هم الا يخرصون» والله جل شأنه يكرر لنا المعنى فى آية أخرى من محكم آيه فيقول : (وما يتبع اكثرهم إلا ظناً ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) .

نريد ألا تعتدى هاتان الطائفتان على أسمى المظاهر الانسانية ، أو يجترحا أقدس الكائنات الالهية ، وأعنى به العقل الذى ميزنا به صاحب العقل المطلق على جميع مخلوقاته ، والذى به وحده نحاسب ، وعلى قدر تمييزه بين الحق والضلال نثاب أونعاقب .

نريد أن نسير إلى الأمام بخطى سريعة متزنة ثابتة ، وأن نستيقظ من هذا السبات الطويل الذى كاد يكون اغماء ، ونصحو من هذا النوم الثقيل الذى قارب أن يكون موتاً زؤاماً ، ونمسح من أعيننا ذلك النعاس العميق ، لننظر ما احتواه ذلك العالم الجديد ، ولنحذو حذو هاتيك الأمم التى بدلت الأرض غير الأرض ، وركبت متن السماء بطائرات الهواء ، حتى لكأنها تبحث عن فضاء أوسع من هذا الفضاء .

نريد أن نسابق الغربيين الذين أخضعوا العالم ، وأنطقوا الجمادات ، واستولوا على قوى الطبيعة ، فقربوا بين الماء والنار وولدوهما البخار والكهرباء .

ولن يكون هذا إلا بترك التخيل والتشهى ، والصدوف عن الترجى والتمنى ، لنعيدالروح

الى جسم هذه الأمة الاسلامية المتقطعة الأوصال ، التى نخرها سوس البدع والضلالات. ولنجدد فى جسمها غدد الحياة بامدادها بالدم النقى الصالح ، ولن يكون هذا إلا باجتثاث الخبيث من أوضاعها ؛ وإذن فلنتخلص من تلك الخرافات التى قضت أو كادت تقضى على الدين وأهله ، لولا كلمة من ربك ، ولننزع الأوهام من نفوسنا فلا ندع لها جانباً تحتله منا وتتسلط به علينا ، فنصبح أسراءها ، ونضحى بين الأمم أشلاءها .

فلنرجع الى أصول الدين الحقيقية التى تتفق والفطرة ، ولنعد الى أحضان الدين الذى يقول ربه « وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى »

ولندعُ أولئك المتمشيخين من فئتى العلماء والمتصوفة إلى الحق ، فان قبلوا النصيحة فبها ونعمت ، وإن أبوا الا أن يظلوا منافقين مرائين مخادعين الناس ، فما هم بخادعين الله وما يخدعون الا أنفسهم ، ولن ينصرهم الله أو يأخذ بأيديهم ، ما داموا مضللين يرون المنكر يرتكب تحت أبصارهم وبين أسماعهم وهم منكمشون ، وفى جلودهم لايتحركون .

رحم الله الشيخ محمداً عبده الذى لقى من بعضهم كل عنت واضطهاد ، والذى لم يكفهم غير رميه بالكفر والزندقة ، ثم عادوا الى صوابهم بعد موته ، فلقبوه بحق — الاستاذ الامام — وهو نفسه الذى وصفهم بقوله :

« أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف ، فليس الحامل عليه التمسك بالدين : فان حملة العمائم انما حركهم الحسد لا الغيرة . وأما صدور الامر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة والخوف من خروج فكر واحد عن حبس التقليد ، فتنتشر عدواه فيتنبه غافل آخر ويتبعه ثالث . ثم ربما تسرى العدوى من الدين الى غير الدين ـ الى آخر ما يكون من حرية الفكر ، يعوذون بالله منها » .

وأخيراً لا أود أن أسترسل فى الاستشهاد وحسبى أن أقرر بأنه لم يكن ليقضى على الدين وأهله ، أو يكاد يقضى عليه سوى تلك الخرافات المنتشرة التى راجت بين عامة أتباعه . ولم يؤثر فيه غير هاتيك الأساطير التى أدخلها أعداؤه ، وما عسره وجعله بغيضاً الى بعض النفوس ، غير جمود بعض العلماء وأخذهم بالاسرائيليات وغرامهم بالمعقد من الشروحات ، ورميهم لكل مفكر بالزندقة والالحاد . فهل آن لنا أن نتيقظ ؟ وهل آن لهؤلاء الذين يحاربوننا أن يتعظوا ؟ علم ذلك عند ربى ؟

عبد العزيز الاسلامبولى

تاريخ البيمارستانات

فى الدول الاسلامية

من رسالة تحت الطبع

للاستاذ البحاثة الدكتور أحمد بك عيسى



هذا عنوان لرسالة قيمة وضعها العالم الجليل والبحاثة المدقق الدكتور أحمد بك عيسى ألقاها فى حفلة العيد المئوى لمدرسة الطب ومستشفى قصر العينى . وقد تفضل الاستاذ فأولانا شرف طبعها وتقديمها هدية لحضرات مشتركينا المحترمين ؛ فنشكر له أريحيته ونبدأ الآن بنشر جزء منها آملين إتمامه إن شاء الله ؟

المحرر

هذه كلمة ألقيها فى تاريخ المستشفيات وهى التى كان يعبر عنها بكلمة بيمارستان فى الدول الاسلامية من عهد دولة الخلفاء الراشدين الى عهد إنشاء مستشفى قصر العينى ، وهذه البيمارستانات كانت احدى المنشآت والعمائر كالمساجد والتكايا والقبور والقباب الخ ، التى كان يشيدها الخلفاء والسلاطين والملوك وأهل الخير على العموم صدقة وحسبة وخدمة للانسانية وتخليداً لذكراهم .

على أن هذه البيمارستانات لم تكن مهمتها قاصرة على علاج المرضى ، بل كانت فى نفس الوقت أمكنة لتعليم علوم الطب يتخرج منها الطلبة كما يتخرجون الآن من المدارس الخاصة .

معنى كلمة بيمارستان

البيمارَستان [1] كلمة فارسية مركبة من كلمتين : بيمار بمعنى مريض أو عليل أو مصاب ،

(1) Vullers : Lexicon persico—arabicum

وستان وهى كلمة اضافية تلحق آخر الكلمات فى اللغات الهندية والفارسية بمعنى دار أومكان أو محل ، والظاهر أن أصلها سنسكريتى فتكون كلمة بيمارستان بمعنى دار المرضى أو بيت المرضى أو محل المرضى ، ثم اختصرت كلمة بيمارستان للسهولة وسرعة التداول فصارت مارستان كما ذكرها الجوهرى ، ولقد كانت المارستانات فى بادئ إنشائها مستشفيات عامة تعالج فيها جميع الأمراض بين جراحية وطبية ورمدية وعقلية الخ ، الى أن أصابتها الكوارث ولحقها الخراب ، فهجرها المرضى وقفرت الا من المجانين ، وكادت كلمة مارستان فى الأزمنة الأخيرة حتى عصرنا هذا لا تنصرف ـ اذا أطلقت ـ الا على مستشفى المجانين .

وقبل الشروع فى ذكر البيمارستان رأيت من الواجب أن أذكر كلمة فى حالة الطب عند العرب فى مبدأ نشأتهم . ثم نذكر البيمارستانات وترتيبها ونظام المعالجة فيها وما كانت تؤديه من الخدمات فى نشر تعليم الطب والمراقبة المضروبة على الأطباء وامتحانهم وما كان يصرف على هذه المارستانات من الحبوس والهبات وحالة الأطباء فى ذلك الزمان وما كانوا يأخذونه أجراً للخدمة فيها وللعلاج الخاص ووظائف البيمارستانات فى الدولة ورتب رؤسائها ومكانتهم فى الهيئة العامة لموظفى الدولة الخ .

حالة الطب عند العرب فى مبدأ نشأتهم

قال القاضى صاعد بن أحمد الاندلسى « إن العرب فى صدر الاسلام لم تعن بشىء من العلوم الا بلغتها ، ومعرفة أحكام شريعتها ، حاشا علوم الطب ، فانها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهرهم لحاجة الناس طراً اليها فهذه كانت حالة العرب فى الدولة الأموية التى هى أول نظام دولى فى الاسلام بعد الخلفاء الراشدين » .

ولم تكن البيمارستانات وجدت فى الدولة الاسلامية الى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك سادس خلفاء بنى أمية فكان هو أول خليفة أنشأ البيمارستان ، غير أن بعض العرب كان قد هجر بلاده الى فارس أو الى الهند أو الى مصر وتلقى علوم الطب فى هاتيك البلدان ثم عاد الى بلاده لمعاناة مهنة الطب كالحارث بن كلـدة الثقفى وابنه النضر بن الحارث بن كلدة فقد تعلم الطب كلاهما فى جنديسابور بلدة من مقاطعة خوزستان احدى أقاليم فارس وكعبد الملك بن أبجر الكنانى وكان فى أول أمره مقيما بالأسكندرية لأنه كان

المتولى التدريس بها بعد الاسكندرانيين ، وكابن أبى رمثة التميمى فقدكان جراحاً شهيراً وزينب طبيبة بنى أود فقد كانت خبيرة بالعلاج ومداواة أمراض العين والجراحات ، مشهورة بين العرب بذلك .

وهؤلاء كلهم من صميم العرب قد هاجروا بلادهم لتعلم الطب ثم عادوا لمعاناة مهنتهم بين بنى وطنهم ، وقد استطبهم النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون ، فلما اتسع ملك العرب وشعروا بالحاجة الى الأطباء لم يستنكفوا استخدام الأطباء من غير بنى جنسهم فاستطب الخلفاء الأطباء من السريان المسيحيين واليهود فاستطب خلفاء دولة بنى أمية ابن آثال الطبيب النصرانى ، اصطفاه لنفسه الخليفة معاوية بن أبى سفيان أول خلفاء دولة بنى أمية وأبا الحكم وحكم الدمشقى وتياذوق واستطب خلفاء الدولة العباسية غيرهم من الأطباء السريان واليهود فى مملكتهم .

فلما عظم ملكهم واتسعت دائرة فتوحاتهم صحت عزيمتهم على إنشاء البيمارستانات ودور التعليم فى بلادهم لتكثير عدد الأطباء سداً للحاجة المتزايدة اليهم ، فكان المنهل الصافى والمنبع العذب والعين الغزيرة التى وردوها لرى ظمأهم وشفاء غليلهم مدرسة جنديسابور وبيمارستانها فهى التى درت عليهم الأطباء والمعلمين والنقلة فى أول عهدهم ومبتدأ نهضتهم .

وبيمارستان جنديسابور هذا لم يكن من وضع العرب ولا من إنشائهم بل كان موجوداً قبل ظهور دولهم وإنما شملته فتوحاتهم ووقع فى كنفهم، غير أننا سنتولى ذكره وتاريخ إنشائه فى مقدمة البيمارستانات لما كان له من اليد الطولى والمساعدة العظيمة والتسهيل الكبير على العرب فى النهوض بمدنيتهم .

أنواع البيمارستانات

كان للبيمارستانات نوعان « ثابت » و « محمول »

فالثابت ما كان عمارة ثابتة فى جهة من الجهات لا ينتقل عنها والمحمول هو الذى يحمل على الدواب الى أى ناحية من النواحى .

البيمارستانات الثابتة

كانت البيمارستانات تشيد فى أبنيـة وعمارات تختلف اتساعاً وعظمة تبعاً لخطر منشئها

والبلد التى تنشأ فيها من حيث الثراء والرخاء والخيرات التى تحبس عليها ، ومن البيمارستانات العظيمة البيمارستان العضدى الذى أنشأه عضد الدولة بن بويه ببغداد ، والبيمارستان النورى الكبير الذى أنشأه السلطان نور الدين محمود بن زنكى بدمشق (١) والبيمارستان العتيق الذى أنشأه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، والبيمارستان المنصورى (قلاوون) الذى أنشأه السلطان قلاوون وكلاهما بالقاهرة ، وكلها من مفاخر آثار هؤلاء السلاطين التى حفظها لهم التاريخ ، ومنها البيمارستان المنصورى لايزال قائماً الى هذه الساعة يؤدى خدمته للانسانية ويشهد بالفخار والعظمة والقدرة وحب الخير لصاحبه .

النظام الفنى للبيمارستان

كان فى كل بيمارستان قسمان منفصلان بعضهما عن بعض : قسم للنساء وقسم للرجال(٢) وكل قسم مجهز بما يحتاجه من آلة وعدة وخدم وفراشين من الرجال والنساء وقوام ومشارفين ولهم المعاليم .

وكل قسم من هذين القسمين ينقسم الى عدة قاعات : قاعة للأمراض الباطنة ، وقاعة للجراحة وقاعة للكحاله وقاعة للتجبير (٣) وكان قسم الأمراض الباطنة ينقسم الى قاعات أخرى : قاعة للمحمومين (٤) وهم المصابون بالحمى ، وقاعة للمحرورين وهى لمن بهم المرض المسمى مانيا وهو الجنون السبعى(٥) وقاعة للمبرودين (أى المتخومين) ولمن به إسهال قاعة وللمجانين قاعة الخ ...

(للبحث بقية) احمد عيسى

---

(١) انظر هذين البيمارستانين فى ما يأتى :

(٢) أنظر بيمارستان قلاوون ص ٣١٠ أصيبعة ج ،

(٣) ص ٢٤٣ أصيبعة ج ٢

(٤) ص ٢٤٣ أصيبعة ج ٢ و ص ٢٥٤ أصيبعة ج ،

(٥) ص ٢٦٠ أصيبعة ج ٢

تحويل القبلة

عن القـدس الى مكة

بقلم شيخ العروبة

الأستاذ أحمد زكى باشا

الفصـل الثالث

— ١ —

ما هى الحكمة فى هذا التحويل ؟

رأينا فيما تقدم أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قد أمضى سبعة عشر شهرا وهو حريص على استئلاف اليهود : بتوجهه الى قبلتهم ، وبتذكيرهم نعمة الله عليهم . ولـكن شقاوتهم حملتهم على الامعان فى العناد ، وعلى الاصرار فى الضلال . حتى انهم أخذوا يستهزءون به ويقابلونه بالتقريع والتأنيب .

الى أن ضاق صدره . وما هو الا بشر مثل كل الناس ، وان كان بذ جميع الناس بما اختصه الله من المحامد والـكمالات .

وصلت به الحال الى ما وصفه الله لنا فى القرآن الـكريم بقوله تعالى :

« فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا (١) »

نعم ، إن هذا القول الـكريم منصرف إلى عموم أهل الـكتاب (اليهود والنصارى) كما يستفاد من نظم السياق فيما قبله وما بعده من الآيات .

لـكننا نرى فى موضع آخر من الـكتاب المجيـد أن الله اختص بهـذا المرمى نفس الاسرائيليين ، دون سواهم ، بقوله لنبيه عليه الصلاة والسلام :

« لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين (٢) »

والـكلام فى هذه السورة الـكريمة موجه الى اليهود ، وإلى اليهود وحدهم .

---

(١) سورة الـكهف (١٨ : ٦) (٢) سورة الشعراء (٢٦ : ٣)

فما هو المعنى الذى تنطوى عليه هذه الآية ، وما هو الامر الجلل الذى يعاتب الله من أجله مصطفاه ؟

تطابق أهل اللغة وجهابذة التفسير على أن «بخع النفس هو قتلها من الغيظ والغضب». والمعنى على مافى الطبرى «أى فلعلك قاتل نفسك ومهلكها .... حزنا وتلهفا ووجدا بادبارهم عنك وإعراضهم وتركهم الايمان بك» وذلك كله من باب الأسف أى الغضب (عن قتادة) أو الجزع (عن مجاهد).

فأنت ترى أن الله نظر بعين العطف والحنان الى ما أصاب نبيه المختار من شدة الغيظ والغضب حتى حدثته نفسه الشريفة بالبخع ، لعدم تحقيق ما كان يرجوه من إيمان اليهود بالقرآن .

من أجل ذلك ، عاتبه الله «على حزنه حين فاته ما كان يرجوه منهم» (كما فى الطبرى عن ابن اسحاق) .

وأنت تعلم أن «فوات الرجاء» هو انقطاع الأمل ، وهو اليأس بعينه .

— ٢ —

وقد قدمنا فيما كتبناه عن الصخرة التى فى بيت المقدس [١] «أن هذه الصخرة كانت قبلة للمسلمين ، يتوجهون اليها فى صلواتهم ، حينما كان هناك لنبيهم أمل فى استدراج اليهود الى الدين الجديد»

فلما فاته هذا الرجاء (على ماقرره ابن اسحق وأقره الطبرى) حصل فى نفسه الشريفة شىء مثل اليأس الذى أصيب به الرسل من قبله ، كما أشار اليه القرآن الكريم بقول الله تعالى : «حتى اذا استيأس الرسل» [٢] على ما ذكرناه فى المقال الماضى [٣] . ونحن نعزز الآن قولنا هناك بما قرره ابن اسحاق ، ثم نؤكده بقول ابن عباس الذى رواه الطبرى وهو «ان المعنى لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم» وبقوله أيضا برواية الطبرى «أيس الرسل من قومهم أن يصدقوهم» . وقد أفادنا ابن جرير «أن اياس الرسل كان من ايمان قومهم» . وهو تخريج لطيف أبداه الامام الطبرى ، ثم أيده بما جاء عن حبر الأمة (ابن عباس) فى

(١) أنظر «مجلة المعرفة» هذه (ج ٢ ص ١٧٠)
(٢) سورة يوسف (١٢ : ١١٠)
(٣) أنظر «مجلة المعرفة» (ج ٣ ص ٢٩١)

هذا الموضوع ، وهو « أن الرسل كانوا بشراً ضعفوا ويئسوا » . والمعنى أنهم لطبيعتهم البشرية ، قد تولاهم الضعف واليأس .

وعلى هذا المثال ، انتهت الحال برسول الاسلام ، عليه الصلاة والسلام « حين فاته ما كان يرجو منهم » أى من اليهود ، مع شديد حرصه على هدايتهم . ومن أجل ذلك بلغ به الغيظ والغضب درجة اليأس التى جعلته يريد أن يبخع نفسه أى يهلكها ويقتلها . فجاءه العتاب الربانى « على حزنه حين فاته ما كان يرجو منهم » .

وما أظرف اشارة الألوسى ، عند تلميحه الى هذا المعنى بقوله :

« أما معاتبته صلى الله عليه وسلم — فى بعض ما صدره — فليس لنقص فيه ولا لاخلال بالأدب عند فعله . حاشاه ، ثم حاشاه ! ولكن لأسرار خفية ، وحكم ربانية : علمها من علمها ، وجهلها من جهلها » .

وعندى أن فى هذا العتاب تشريعاً للناس فى سبيل احتمال الأذى ، ورياضة لهم على الرضى بما قضى ، وارشاداً الى طريق الأدب لاتباع منهاج الهدى .

فبعد انقطاع ما كان النبي يؤمله ويرجوه من ايمان اليهود به ، تطلعت نفسه الكريمة الى العدول عن بيت المقدس . وما كان له أن يفعل شيئاً أو أن يأتى أمراً بغير الوحى أو الالهام . فكان فى قرارة نفسه « يشتهى القبلة نحو البيت الحرام » (على رأى قتادة) و « يشتهى أن تكون قبلته الى الكعبة » (كما قال البراء بن عازب وقتادة) و « كان يحب قبلة ابراهيم » (على قول ابن عباس) .

— ٣ —

ولماذا كان الرسول الأكرم يتمنى على ربه أن يصرفه الى الكعبة المطهرة ؟

ذلك لأنها :

(١) قبلة أبيه ابراهيم .

(٢) أقدم القبلتين (على قول واحد) .

(٣) أدعى للعرب الى الايمان ، لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم .

(٤) لمخالفة اليهود .

ومن أجل ذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يردد وجهه الى ناحية العلاء ويصرف نظره فى جهة السماء، متشوقاً للوحى، على لسان أخيه جبريل .

فقد كان يقع فى قلبه ويتوقع من ربه أن يحول القبلة الى الكعبة . ولذلك كان يراعى نزول جبريل بالوحى والتحويل (على ماقاله الزمخشرى ثم أبو السعود) .

بل قال لنا قتادة والسدى أنه « كان يقلب وجهه فى الدعاء الى الله تعالى أن يحوله الى الكعبة » .

وذهب الألوسى فى أول الامر الى أن « الظاهر أنه صلى الله عليه وسلم لم يسأل ذلك من ربه ، بل كان ينتظر فقط » . ولكن الألوسى مالبث أن عاد فعرفنا «أنه صلى الله عليه وسلم دعا وسأل التحويل لمصلحة ألهمها ومنفعة دينية فهمها »

ولقد أجاب الله تعالى سؤله وأسعفه بمناه ، فاختار له القبلة التى يحبها ويرضاها لأغراضه الصحيحة التى أضمرها ، وهى التى وافقت مشيئة الله وحكمته (على ماقال الزمخشرى) .

وقد وصف الألوسى هذه القبلة الجديدة بانها «هى التى يرضاها الرسول الاعظم ويشتاق اليها لمقاصد دينية وافقت مشيئة الله وحكمته » .

وقد أشرنا الى هذه الأغراض الاربعة .

— ٤ —

من كل ذلك يتبين لنا :

أولا — أن النبي عليه الصلاة والسلام ، حينما وصل الى المدينة المنورة ، اختار الصخرة التى ببيت المقدس قبلة له وللاسلام .

ثانيا — وأن ذلك كان مبنياً على الأمل باستدراج اليهود الى الدين الجديد .

لأن الله خير محض وهو يريد الخير . ولكن غلبت عليهم الشقاوة (الا قليلا منهم) فلبثوا فى غوايتهم وعمايتهم ، بل تغلغلوا فى الأذى والزراية ، وصاروا يعيرون النبي عليه الصلاة والسلام بالصلاة الى قبلتهم بأنه يتوجه الى بيت المقدس .

وعلى ذلك ، فلم ينفع فى اليهود وعظ ولا تذكير (الا من رحم ربك) ولم ينتهوا الى الحق الذى جاء به البشير النذير . وكانت النتيجة أن النبي عليه الصلاة والسلام صار يقلب طرفه فى السماء مراراً وتكراراً عسى أن يأتيه الوحى بصرف القبلة عن بيت المقدس الى

المسجد الحرام . الى أن تم له المرام . فأنزل الله عليه فى القرآن قوله تعالى :

« قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها . فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » صدق الله العظيم .

— ٥ —

ومن أجل ذلك صار المسلمون يقولون عن المسجد الأقصى ، إنه أولى القبلتين .

أما انه ثالث الحرمين ، فظاهر :

لأن الحرم الأول هو المسجد الحرام بمكة المكرمة ، والحرم الثانى هو الروضة الشريفة المطهرة بالمدينة المنورة ، والحرم الثالث هو المسجد الأقصى بالقدس الشريف .

وذلك مستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الاقصى ، ومسجدى هذا » . رواه أبو سعيد الخدرى . وقد روى الامام أحمد فى مسنده عن أبى الدرداء قول نبينا عليه الف صلاة والف سلام : « فضلت الصلاة فى المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة ، وفى مسجدى بألف صلاة ، وفى مسجد بيت المقدس بخمسمائة صلاة » .

— ٦ —

ولعل فى هذا كفاية للسائل الكريم ، وبلاغاً للطالب المستفيد . والله يقول الحق ويهدى الى سواء السبيل . وهو المسئول أن يتولانا برحمته، وأن يعصمنا من الخطأ والخطل، وأن يوفقنا لخدمة الاسلام بالبرهان القاطع والبيان الساطع ، عن طريق التحقيق والتدقيق لا عن طريق الأضاليل المختلقة والأساطير الملفقة . وهو حسبي ونعم الوكيل ؟

عن دار العروبة أحمد زكى باشا

داء الشرق الأسلامي ودواؤه

— ٢ —

المؤتمر الاسلامي

للسيد عبد العزيز الثعالبي

يجمل بنا أن ندخل مباشرة بدون تعريج على المقـدمات فى موضوع علاج الأمراض المعضلة التى ذكرناها — فى الجزء الثالث من هذه المجلة — لأن أطباء الاجتماع الاسلامى، قد قتلوا هذا الموضوع بحثا وتحقيقا.

أجل، تعرض أطباء الفكرة الأسلامية لذكر أنواع من العلاجات الناجعة، لكنهم أعرضوا تماماً عن بيان الطرائق الموصلة للعلاج، وتمريض الهيئة الاجتماعية الأسلامية، ولم يرشدونا عن كيفية وقايتها من النكسة.

وليس يكفى لمعالجة أدواء المسلمين مجرد تشخيص الداء، ولا العلم بأن طريقة المداواة هى العلم والنظام وإيجاد المرافق التى تكفل حيوية الأمة واقتباس الطرائق العملية التى جرت عليها الأمم المتمدنه وغير ذلك من البديهيات، ولـكن يجب أن نجد الطرائق الموصلة إلى إحكام طريقة العلاج وجعلها ناجحة مفيدة، يتقبلها المسلمون كقضية مسلمة لاجدال فيها.

*
* *

لاينقص المسلمين العلم بحياة الأمم، ولا الأحاطة بأسباب ترقيتها، خصوصا بعد أن دونت قواعد علم الاجتماع وعلم النفس، وعرفت خصائص الأمم. وإنما ينقصهم أن يعرفوا قابلية الأمم واستعدادها لقبول مايتناسب مع حالاتها وأوضاعها، فليس من الحكمة أن نترسم فى معالجة أدواء الأمم الأسلامية اليوم، الخطط التى جرت عليها أوروبا فى نهضتها، لأن ظروفنا غير ظروفها، ومحيطنا غير محيطها، والموانع التى تعوقنا غير الموانع التى تعترض تقدمها، فقد كانت النهضة الاوروبية التى بدأت فى القرن الخامس عشر تسير فى منهجها وليس عليها رقيب من الأمم التى كانت تنافسها، ولم تطوق بشرائع ظالمة يمليها عليها أعداؤها وخصومها كما هو حاصل اليوم فى البلاد الأسلامية قاطبة، وفوق هذا وذاك كانت سليمة من كل تدخل أجنبى، ومن الدعايات الأجنبية المضللة التى هى أنكى سلاح فى يد أعداء

الشرق ، استعمل لنحر الاسلام فى مرابضه ومآمنه ، وكل ما كانت تلقاه شغب داخلي يظهر أحياناً ويغور أحياناً بين طلاب النهضة وأنصار التقليد ، وكلاهما لا يشغله شاغل عن خدمة أمته وإعلاء شأن بلاده . أما نحن معاشر المسلمين فقد تغلغلت فينا السلطات والدعايات الاجنبية حتى أفسدت علينا عقولنا وضمائرنا ، وفرقت بين الأخ وأخيه، والأب وبنيه .

وهذا هو السر فى إخفاق كل نهضة ظهرت فى البلاد الأسلامية من نحو قرن ، بحيث إن كل محاولة قام بها المسلمون سواء كانت بواسطة دولهم أوأفرادهم ،كانت نتيجتها الأخفاق إن لم نقل إنها استحالت الى بلاء وبيل عليهم ، اذن فلابد من تغيير الطريقة ، واصلاح المنهاج ودرس أسباب هذا الأخفاق، وهذا لا يكون من عمل الأفراد، ولا يكون بجهود موضعية يستبد بها فريق دون فريق ، بل لابد لذلك من عقد اجتماع يتألف من عباقرة المسلمين ، وفطاحلهم وزعمائهم، وهم كثيرون اليوم والحمد لله تعج بهم الأقطار والأمصار. ومن هؤلاء ينعقد مؤتمر يضع مناهج لتربية المسلمين وتعليمهم، ويؤلفون اللجان الدائمة لتنشيط علمائهم واستثمار جهودهم ، وتسوقهم لايجاد مقومات اجتماعهم، ورسم الخطط الكافلة لتقدمهم، ودرء الأخطار الأجنبية عنهم ، بشرط أن يكون هذا المؤتمر — الذى يشرف على أعمال هذه اللجان — دوريا ينعقد بعد كل بضع سنوات مرة، ويضع الأساليب الفعالة لتنفيذ تلك القرارات بحيث تكون مقرراته داخلة ضمن مسائل الأجماع التى يأثم كل مسلم اذا خرج عنها .

أين يعقد المؤتمر ؟

أما مكان انعقاد هذا المؤتمر ، فلست أرى اختيار أى قطر اسلامى له، والمسلمون كما نعلم ليس لهم من أمرهم شيء ، حتى فى البلاد التى تتمتع بسلطة الوازع الذاتى منها ، لأنها غير معصومة من وقع النفوذ الاجنبي فيها ، ان لم نقل إنها خاضعة فى الباطن لسلطة الغاشم ، بل أضمن لدوام هذا المؤتمر ونجاحه أن يكون انعقاده فى بلاد بريئة من شوائب الاستعمار لا تحاك فيها الدسائس: مثل بلاد الدانمرك، والسويد، والنرويج، وفوق ذلك فيها من وسائل الحضارة، ووسائط النقل والاذاعة ، ما يكفل جعل عمل هذا المؤتمر عالمياً ومفيداً للتقدم والحضارة، وتخفيف بطش وغلواء الأمم المستعمرة . وهو اذا تم سيكون أداة تفاهم بين حملة مشعال الثقافة والمدنية فى العالم أجمع ، لافى أقطار الشرق فحسب . ومن ناحية أخرى فان انعقاد هذا المؤتمر فى احدى عواصم هذه الدول الصغيرة المتمدنة، يجعله فى مأمن من كل

اتهام يوجه الى الأمم الاسلامية ، كلما حاولت أن تنهض وتقوم بمثل هـذا العمل فى أى قطر من أقطارها . فقد جربنا أن كل حركة سلمية يقوم بها أى قطر اسلامى ولو كانت لفائدة المدنية والعلم، تكون معرضة للاتهام من قساوسة السياسة فى أوربا وأذنابها فى الشرق فخير أن يكون هذا العمل فى أوربا، وبين سمعها وبصرها ، وتحت مراقبة علمائها وحكامها، من أن يكون سرا من الأسرار، لأن السرية فى مثل هذه الأعمال ليست فى مصلحة الشرق ولن تفيد الأسلام أبدا .

واذا قدر أن يكون لهذا الصوت أثره فى أسماع الغيورين من اخواننا الشرقيين : مسلمين وغير مسلمين ، فما عليهم الا أن يجمعوا شعثهم ، ويؤلفوا لجنة من الرجال الذين امتازوا بأخلاصهم ، وبعـدهم عن المزالق ، والذين يطمئن لهم سكان أقطارهم فى العراق وسوريا وفلسطين ومصر وتونس والمغرب الأقصى وجاوه والهند وفارس والبانيا والبوسنه وغيرها ويؤلفون لجنة تحضيرية تتولى المنابأة والمفاهمة مع الافراد المعروفين فى بقية الاقطار الأخرى ، وبعد الاتفاق توضع المناهج لأعمال ومكان انعقاد المؤتمر .

هذا ما ارتأيته مجملا فى معالجتى أدواء المسلمين ، وعساه لايجد أذنا صماء . وأسأل الله تعالى ، أن يوفقنا جميعا لخدمة هذا الشرق المنكود ؟

عبد العزيز الثعالبى

« المعرفة » تشكر حضرة الزعيم الاسلامى ، السيد عبد العزيز الثعالبى ، على ما أبداه من آراء سديدة ، وأسداه من نصائح غالية ، وهى تود لو قدر لها أن تكون رسول محبة وسلام بين جميع الأقطار الاسلامية المختلفة ، ويسرها أن تعلن لحضرات رجال الشرق وكبار مفكريه ، على تبـاين نحلهم ، واختلاف مشاربهم ، مسلمين وغير مسلمين ، أنها على استعداد تام لنشر ما يرد عليها من حضراتهم حول هذا الاقتراح ، سواء أكان الرد مؤيداً أم معارضاً ، فان الحقيقة بنت البحث ، وهى ليست فى حاجة الى التنبيه ، بملاحظة عدم التعرض لدين ما ، فهـذا أمر معروف عن المجلة .

الحسين بن علي (١)

بقلم الدكتور

عبد الرحمن شهبندر

— ٢ —

لما أعلنت الحرب العامة ، ورأى الحسين بن على الخطر المحدق بالدولة من دخولها غمارها ، وقدر شأن انعزال بلاد العرب عن سائر أجزاء المملكة ، لم تسمح له ذمته بأن يجارى صبيان الاتحاديين فى مغامرتهم ، لذلك كان جوابه لمجلس الوزراء فى الاستانة ، انه لا يوافق على اعلان حرب تستهدف بها البلاد لأشد الأخطار ، وقال لوهيب باشا والى الحجاز ، إنه لا يقر اعلان الجهاد المقدس من على منابر بيت الله ، خشية أن تكون نتيجته مهزلة وعاراً ، كأنه قرأ فى صحف الغيب أن انكلترة ستجند الهنود فتفتح بهم العراق ، وتدفع بواسطتهم جيوش الخليفة عن ترعة السويس . وأنها ستنظم العمال المصريين ، فتمد بسواعدهم القوية سكة حديد سينا لتصل بها إلى الحرم الثالث والرابع ، وأن الفرنسويين سيجيشون التونسيين والجزائريين والمراكشيين فيدفعون بهم جيوش الألمان عن باريس وفردون . ومما لاشك فيه أبدا أنه لو كان العقلاء أمثال المشير عزت باشا ، هم القابضون على زمام السلطنة فى تلك الايام العصيبة ، لقبلت نصيحة الحسين ، وما سفكت تلك الدماء ، ولا مزقت تلك الأوصال ، ولكان لنا شأن مع الترك الأحرار الصادقين ، لا الدجالين المنافقين ، غير شأننا اليوم .

شهرت الدولة الحرب فى شهر اكتوبر سنة ١٩١٤ باعتذار انتحلته عن مهاجمة الاسطول الروسى للاسطول العثمانى ، وما موقد نارها فى الواقع الا الاميرال سوشون قائد الدارعتين جوبن وبرسلو ، بما أتاه من التعدى الفجائى على أساكل الروس وسفن الحلفاء . وقد سمعت من سمو الامير عبد الله أن أول ما لاحظه والده من سوء نية الاتحاديين ، هو أن أنور باشا أصر عليه بوجوب سحب القبائل العربية الى جبهة القفقاس ، لمحاربة الدولة الروسية بدلا من إبقائها رابضة فى أماكنها ، فكانت هذه الغاية مماثلة لغاية جمال باشا لما أمر فى أوائل سنة ١٩١٥ بحل تابور الضباط السوريين الذين كانوا فى الخدمة المقصورة ، وبعثرتهم فى الانحاء .

(١) راجع الجزء الرابع الذى صدر فى أغسطس سنة ١٩٣١ من هذه المجلة .

وهذه الغاية هى اخلاء البلاد العربية من القوى المحاربة التى يخشى بأسها الاتحاديون وحشدها على حدود الأقطار التى تضم عناصر الجامعة الطورانية .

ثم أخذت علائم الساعة وأشراطها ، تبدو فى كل مكان من بلاد العرب بسط عليه الاتحاديون رواقهم ، من تسخير وتعذيب وإجاعة وإجلاء ، الى ضرب وتدمير وصلب وتقتيل ، حتى لم يبق فى قوس الصبر منزع . ولما سيق رجالات العرب الى المشانق أفواجا أفواجا ، نفخ فى الصور فبعثت الهمم من مراقدها ، وغضب الحسين بن على غضبة هاشمية مضرية ، فصاح بين أسوار مكة صيحة ارتعدت لها الفرائص ، واسودت لها وجوه السفاحين وزبانيتهم وجواسيسهم وابيضت لها وجوه العرب وأنصارهم . ثم مشينا على الصراط متكئين على رماحنا وسيوفنا وبنادقنا من غير تثاقل ، حتى دخلنا الشام ، جنة الله فى أرضه ، فكان حساب ، ولكن من غير عقاب ، لأن شيمة أحفاد من أسس مجد العرب ، أن يصفحوا حتى عمن خان عهد العرب من أبناء العرب .

ولايفاء الثورة العربية حقها من المكانة التاريخية ، وشأن معلنها من العزم والاقدام لابد من الاحاطة ببعض الأحوال التى كانت تكتنفها ، فقد أعلنها الحسين وسحب اعلامها لما كانت الجيوش الألمانية على عظمتها وأبهتها فى الميدان الغربى فى بلجيكا وفرنسا . فى الميدان الشرقى كانت قد مزقت شمل الروس واحتلت فرسوفيا بعد ما ضربتهم الضربة القاضية فى بحيرات مجوريا ، فأخذت منهم مائة ألف أسير ، وأما فى غاليبولى فكان الانكليز قد انهزموا شر هزيمة ، وانسحبوا منها بعد ماخسروا خسارة جسيمة فى أسطولهم ، وتركوا من القتلى مايربو على مائة وخمسة عشر ألفاً فى مدة لا تتجاوز ثمانية أشهر . وكان الجنرال تونزند قداستسلم فى كوت الامارة من بلاد العراق فى أواخر ابريل سنة ١٩١٦ ، واستسلم معه ١٣ ألف أسير ، وكان جيش الصاعقة على أهبة التنظيم فى حلب ، والقائد فون كرسنشتين يعد جيشا لجبا لاكتساح وادى النيل من شبه جزيرة سينا . أما فى الحجاز فكان وهيب باشا قد انسحب وحل محله غالب باشا ، فكان عدد الجيش العثمانى هناك لا يقل عن ثلاثة عشر ألفاً ، منهم قسم كبير فى مكة فى قلعة (جيـاد) يشرفون على الحطيم وزمزم . وكان فخرى باشا يستجمع قواه فى المدينة ، ويضم حوله جيشا عرمرما لا يقل عن خمسة وثلاثين ألفاً .

هذه كانت الوضعية الحربية بالاجمال ، وهى قائمة سوداء تدل على رجحان كفة الالمان وحلفائهم الاتحاديين فى كل مكان ، وأقتم منها تلك المظالم والمغارم والمشانق والمجاعات ، التى كانت تهدد كيان العرب فى عقر دارهم . وقد حاول الاتحاديون أن يمدوا يدهم بشدة الى الحجاز أيضاً ، فعلاوة على ارسالهم الفيلق الجديد الى المدينة بقيادة فخرى باشا ، أوقفوا إرسال الزاد والأطعمة من سورية الى الأراضى المقدسة ، وكانت أبواب البحر موصدة دون الحجازيين من جراء الحصار البحرى الانكليزى الآخذ بالخناق ، فضاقت بهم سبل المعيشة حتى باع بعضهم سقف داره للحصول على بلغة من العيش تسد الرمق ، وحتى عذرهم على انتقاضهم رجل مسئول مثل على فؤاد باشا ، رئيس أركان حرب السفاح .

ومع كل هذه الأحوال غير الملائمة والمضعفة للعزيمة ، فان الحسين وأشباله ، الذين وضعوا لبان الثورة للحق على الباطل ، لم يحجموا عن دق الطبول وسحب الاعلام رفعاً للضيم وانتصاراً للحق ، فنازلوا السفاحين بأقل عدد من شراذم البدو ، وأضعف سلاح من مختلف الأشكال ، فكانت لهم الغلبة على عبدة الذئب الأبيض ، من منافقى الاتحاديين ، كما كان لجدهم الأكبر على المشركين من عبدة الأوثان ، فنادى المنادى من أطراف الحجاز الى مشارف الشام بصوت عربى مبين ، رددت صداه الوهاد والجبال والغور والأنجاد « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » ذلك لأن الظلم مرتعه وخيم ، والأمم تستكين وتتحمل الأذى وتصبر على الضيم ، ولكن الى حين ، وقد لا يبدو عليها التذمر ، ولا يلاحظ فى وجهها الضجر إلا أنها متى انفجرت ، قطعت السلاسل وحطمت القيود ، وكانت كالسيل العرم يجرف ما يقف فى سبيله من العقبات إلى أن يستقر فى مكانه .

استتب الأمر للحسين ، وعقد العرب آمالهم على المليك المفدى وعلى عزيمته الصادقة ولكن فى سنة ألف وتسعمائة وواحد وعشرين ، هبط جدة ضابط بريطانى حزقه قصير برأس كبير ، يحمل مشروع معاهدة من وزارة الخارجية البريطانية ، فيه طلب الاعتراف من الحسين بالتمزيق الذى حصل ، والانتدابات التى فرضت ، مقابل ذلك ضمانة الانكليز لاستقلال الحجاز وسلامة العرش الهاشمى فى بيت الله . فأبى الشيخ الجليل أن يبيع دينه بدنياه ، ويبنى لنفسه مجدا شخصياً على جماجم أبناء عمه فى فلسطين وسورية والعراق ، فرد الكولونيل لورانس رداً قبيحاً ، ولسان حاله يقول : عجباً لكم يا بريطانيون ! تحاربون ألمانيا لأن

بتمن هولويج ، قال عن المعاهدات إنها قصاصات من الورق ، وتحاربوننا لأننا نقول إنها ألواح من المهج ؟

وهل الأمم تطالب بشرف المعاهدات فى أوربا ولا تطالب بشرف المعاهدات فى آسيا ؟ مع أن كتابنا لم يفرق بين القارات والألوان والأجناس والأديان ، لما أمرنا بانجاز العهود وعدم الاخلاف بها ، فقال فى الآية الرابعة والثلاثين من سورة الاسراء « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا »

وبعد ثلاث سنوات من هذه الزيارة ، هجم الغطغط حلفاء الانكليز على الحجاز ليطهروه من أدران الشرك وأوزار الخيانة ، فسحوا باسم دين الرأفة رقاب أهل الطائف نساء ورجالا وأطفالا ، بصورة تقشعر من هولها الأبدان ، ولا تشرف سكان الجزيرة كثيراً ، فدب الرعب فى قلوب الناس فى أم القرى ، فهاموا على وجوههم يطلبون لهم ملجأ حتى خلت القصور من ساكنيها ، والطرقات من عابريها ، وزحف المقعدون على بطونهم لايعرفون أين المفر ؟ وكان زعيم من بنى الأطرش المجاهدين ، حاضرا فى البلاط يومئذ فقال « ولما أحسسنا بالشر على الأبواب تواقعنا على الملك حسين ، نرجوه أن يخرج معنا ، فأبى أن يفارق موطن الآباء والجدود ، ولما اشتدت الجلبة والغوغاء ، لم نعد نملك قياد أنفسنا ، فخرجنا هائمين كغيرنا نطلب لأنفسنا السلامة ، لكن الشيخ الوقور صاحب اللحية البيضاء الناصعة بقى بعدنا ، وما أظنه خرج الا بعد ما سمع وقع أقدام الغطغط على أبواب القصر »

لقد حاول أنصار جمال باشا السفاح ، أو الذين آمنوا بالدعايات الاتحادية ، أن يهزأوا بكلمة «المنقذ» التى لقب بها ، ظناً منهم أن مؤسسى تورك أوجاغى ، ومؤيدى أتيلا وجنكيز وهولاكو وتيمور ، والمؤمنين بالبيسة وبعبادة الذئب الأبيض ، كانوا هائمين بالاسلام ، متفانين فى حب الخلافة ، لما نعوا على الحسين ثورته وشقه عصى الطاعة ، وشنعوا عليه فى أصدق ميزاته ، ولم يدر فى خلدهم أن شهر حزيران من سنة ١٩١٦ ، كان ختام شهور المشانق التى نصبت لزعماء العرب ، والمناطق التى أخليت لاجلاء البيوتات والأسر فى سورية والعراق . وإن لم يعترف غيرنا بأنه كان منقذاً ، فنحن نشهد أهل الأرض والسماء ، بأن العلم الذى سحبه فى شعبان فى أم القرى ، أنقذنا من أفظع سفاح شهدته بلادنا فى القرون الحاضرة .

والانقاذ أنواع : منه انقاذ من الوثنية ، وانقاذ من الجهل ، وانقاذ من العبودية ، وانقاذ من الاستعمار ، كما أنقذ الغازى الترك من أوروبا ، ولا شك أن الانقاذ من الهلاك المحتم

فى المادة والمعنى إنقاذ ما بعده، إنقاذ . وحسبي أن يشهد بصحة كلامى، أبناء بلادى وأقرباء الشهداء من رجالات العرب، والذين تجرعوا غصص الجوع والعطش والنفى والعذاب، ولا سيما تلك النخبة المنتخبة، من سجناء خان البطيخ العاصمة الأموية .

على مثل تلك الحالة القاتمة، المحفوفة بأخطر الاحتمالات التى شرحناها، دخل الحسين فى الثورة العربية وهو فى سن الخامسة والستين . وبمثل هذه الحالة المقضة التى وصفناها، خرج من الثورة وهو فى سن الخامسة والسبعين . وفى الديار الشامية التى أحبها، فارق دنياه وهو فى سن الثمانين .

وقد يكون للرجل فى سنه وفى منشأه وفى بيئته، خطيئات عظيمة لامفر منها، وقد يكون له فضائل لامثيل لها . وقد يعيش أميراً فيصير صعلوكا، ويجلس على العرش فينام من غير فرش . ويمتطى الجياد الى الجهاد، كما يركب البواخر إلى النفى والابعاد . ولكنه من غير شك عاش على العهد، ومات على العهد . نما كبيراً، وذبل كبيراً، وليت شعرى من أحق منه بالصدق والعزيمة والثبات، وهو هو حفيد أخلص نفس، وأثبت مبدأ، وأصدق رجل : — حفيد من قال لأبى طالب منذ أربعة عشر قرناً « يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى، على أن أترك هـذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته » ؟

عبد الرحمن شهبندر

بماذا تطول مدة الملك ؟

يقال فى بعض كتب الأوائل فى مواعظ الملوك وآدابها :

« إن الملك تطول مدته إذا كانت فيه أربع خصال :

إحداها، أنه لا يرضى لرعيته إلا ما يرضاه لنفسه ؛

والاخرى، أن يجعل ولى عهده من ترضاه وتختاره رعاياه لامن تهواه نفسه ؛

والرابعة أن يفحص عن أسرار الرعية، فحص المرضع عن منام رضيعها . »

وقد نجد مصداق هذا القول ونشهد به . وذلك انا لم نر مدة طالت لملك عربى ولا عجمى قط إلا لمن فحص عن الأسرار، وبحث عن خفى الأخبار، حتى يكون فى أمر رعيته على مثل وضح النهار ؟

(عن كتاب : التاج فى أخلاق الملوك)

خلاعة النساء

ومحـــال الرقص

للسيدة هدى هانم شعراوى

تسألوننى عن رأيى فى مسألة تبرج النساء وغشيانهن محال الرقص ، وما هو العلاج لهذين الأمرين ، فأقول :

إن ازدياد تبرج النساء وإقدامهن على المراقص ، لمن الأمور التى تستوجب الأسف وانه وان كانت ترجع مسئولية ارتكابها على المرأة ، الا أن العدل يقضى بأن لا ننسى أن اختلاف الرجل الى محال اللهو ، وتعلقه بأذيال اللاتى تتخذن الخلاعة والزينة مصيدة لاقتناص ضعفاء الارادة من الرجال ، يدعو المرأة الجاهلة الى التفانى فى التبرج والافراط فى الزينة والتردد على تلك المحال ، لتستبقى مودة زوجها ، وليجد فيها من التمتع ما يغنيه عن غيرها ، ثم تنتهى بأن يكون التبرج عادة لازمة لها .

وإن جهلها بالوسائل الصالحة لجذب قلب زوجها ، بمشاركته فى شئون الحياة وما يعترضها من العقبات ، التى لا تسهل لها هذه المشاركة اذا كانت أهل لها بسبب الحجاب ، كل ذلك يدفعها الى اتخاذ تلك الوسائل المادية التى نشكو منها .

ولا طريقة لتلطيف شر هذه الحالة الا بتثقيف عقل المرأة بالعلم الراقى ، وفتح أبواب العمل أمامها لتوجيه أفكارها إلى الاشتغال بالأمور النافعة فى داخل المنزل وخارجه .

ويجب لتحقيق هذه الغاية رفع الحجاب الحالى عنها ، فقد أصبح ضرره اكثر من نفعه . وصار أداة من أدوات الزينة والبهرجة السيئة ، على أن طرح هذا الحجاب يظهر شخصية المرأة ويسمح لزوجها بمرافقتها دون أن يتعرض أحدهما لمظنة ، وفى هذا حياة لكليهما ؟

هدى شعراوى

«المعرفة» لعل حضرات السيدات المصونات ، والآنسات المهذبات ، يكون من أنفسهن جماعات منظمة ، لمحاربة تلك الخلاعه المستهترة ، وذلك التبرج الزرى ، فيحققن بهذا العمل الجليل ، ما يدعون اليه من حرية وسفور ، والا فليلبثن فى عقر دورهن : فذلك خير وأبقى من الدعاوى التى لا تقوم على أساس .

ليبنتس

LEIBNIZ.

بين الفلسفة والدين

للاستاذ عثمان أمين

ليسانسيه فى الفلسفة والآداب

ليبنتس فيلسوف ألمانى عاش فى النصف الثانى من القرن السابع عشر . و يعتبر هو والفيلسوف « كانت » أكبر فلاسفة الألمان ومن أشهر فلاسفة العالم . منحه الله عقلا واعيا ، واستعدادا عجيبا لفهم الناس وقبول أقاويلهم المتباينة ، والتوفيق بين مختلف نزعاتهم ووجهات نظرهم : فكان يقول إن فى كل رأى وفى كل نظرية — مهما يكن شأنها — شيئا من الحق ، لو تدبرنا وكنا فى حكمنا من المتريثين . وكان يحترم نتاج الفكر أيا كان ، ويأخذ الحكمة أنى وجدها ، وعن أى لسان وفى أى كتاب . عكف على الاطلاع منذ صباه ، فكان يقرأ كل ما يقع فى يده من الكتب ، وبدأ يتفلسف وهو بعد صبى يافع . وهو يحدثنا أنه كان يسير فى متنزه ليبزج ولما يبلغ الخامسة عشرة من عمره ، فيسائل نفسه أينحاز الى فلسفة ارسطاطاليس أم ديمقريطس .

برع فى الفلسفة ونبغ فى العلوم الرياضية وفى القانون وفى التاريخ وفى فقه اللغة ، وفى جملة فروع المعرفة الانسانية . تقلد عدة مناصب ذات بال ، وتقلب فى أعطاف النعيم والجاه دهرا . واذا كان قد وجد من الفلاسفة والمفكرين أمثال : سبينوزا وروسو ، من قضى حياته فى وعزلة وانقباض عن الناس ، فان الفيلسوف ليبنتس قد أقبل على الدنيا خير إقبال أو قل إن الدنيا هى التى أقبلت عليه فلم يعرف من الحياة غير وجهها المشرق الباسم ، وكان فيها من السعداء الهانئين .

عرف أكثر مفكرى أوربا فى عهده ، وجرت له معهم مراسلات ومناظرات ، واتصل بكثيرين من الأمراء والعظماء : توثقت الروابط بينه وبين امبراطور النمسا ، وبين بطرس الأكبر قيصر روسيا ، كما لبث مستشارا وصديقا حميا لأمراء هانوفر . أنشأ أكاديمية

برلين ، وسعى للتقريب بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتيه .

حباه الله علماً وديناً ، وأسبغ عليه خلقاً وفضلا ، وهيأ له ماشاء من مراتب الشرف والاقبال . وانك لتلمح أثر هذه الحياة الباسمة باديا فى سائر ماألف وصنف ، بل وفى تلك الكلمة المشهورة التى طبع بها فلسفته الدينية ، والتى أصبحت من بعد لحياته شعاراً : « كل شىء حسن ، فى أحسن العوالم الممكنة »

« Tout est pour le mieux, dans le meilleur des mondes possibles. »

صنف فى الفلسفة والعلم والدين كتبا ورسائل شريفة ، كتب بعضها باللغة الفرنسية وبعضها باللاتينية وبعضها بالألمانية ، وأشهرها « مباحث جديدة فى العقل الانسانى » وهو كتاب كتبه ردا على الفيلسوف الانجليزى لوك ، ثم كتاب « تيوديسيه » ومعناها فى اصطلاح ليبنتس (العدالة الالهية) ثم كتاب « مونادولوجيا » أى نظرية الجوهر الفرد.

كان كريم المعشر ، دمث الأخلاق يألف الناس ويألفونه . وكان يتحاشى أن يؤذى أقل الحيوانات : فكان يأخذ الحشرة ليفحصها بالمكرسكوب ، ثم يعيدها الى الورقة التى انتزعها من عليها فى رفق ولين .

حفلت حياته بجلائل الأعمال ، وظل دائبا على التفكير والدرس حتى لقد فاضت روحه وبيده كتاب يقرأه .

*
* *

رأى ليبنتس فى فلسفة ديكارت وهوبز وسبينوزا خطرا يتهدد مافى الطبيعة من اعتبارات دينية وفنية . لأن أولئك الفلاسفة ، على ما كان بينهم من اختلاف ، يتفقون جميعا فى أنهم أقاموا أوحاولوا أن يقيموا نسقا طبيعيا ، آليا (ميكانيكيا) محضا ، من حيث جانب الوجود المادى ، أعنى أنهم تصوروا العالم خلوا من معانى الغاية والتدبير ، وكأنه فى نظرهم ليس الا محض آلة تتحرك كما تتحرك الآلات .

فجاء ليبنتس وأخذ على عاتقه أن يتخطى هذا التصور الآلى للطبيعة ، وحاول أن يبين أن القوى التى تعمل فى الآلية انما تحددها وتوجهها الغائية ، بحيث أن كل تدرج فى الاسباب والنتائج الآلية ، إن اعتبر من الداخل ، صار تدرجا فى الوسائل والغايات . وان صميم العالم انما ينطوى فى كل نقطة على اتجاه ، ونمو ، وتقدم .

وبفضل هذه الفكرة — التى وفقت بين مذاهب الآلية والغائية ، وبين حالات الجواهر الفردة على اختلافها ، كما لاءمت بين الروح والبدن — ظن ليبنتس أنه يستطيع بها فى الوقت نفسه . أن يوفق بين العقل والدين ، وكان مقتنعا بأن فلسفته كفيلة بارضاء أدق مطالب الدين وأبعدها . والحق أن ليبنتس كان مخلصا فى سعيه للتوفيق بين الفلسفة والدين . ولم تغب هذه الفكرة عن ذهنه مدى حياته . ولقد كان يؤمن أن جميع عناصر الكون وذراته مؤتلفة متسقة . وهذا الاتساق الكونى ليس ثمرة المستقبل فحسب ، بل هو كامن فى النفوس من قبل ، لكن أكثر الناس لا يعلمون .

*
* *

أما المسألة الدينية فقد أثار الكلام فيها « بيل (Bayle) » أحد كبار المفكرين من معاصرى ليبنتس ، وصاحب «القاموس التاريخى النقدى» المشهور . وقد كتب «بيل» بحثا تناول فيه مسألة العناية الالهية ، ووجود الشر فى الدنيا ، أتى فيه على شبه الملحدين والمانوية والابيقوريين ، وانتهى منها الى القول بأنه ، يرى أن الدين والعقل يتعارضان ولا يتفقان . وان كان يؤمن بعقائد الدين .

وقد كان لتلك الشبه التى أثارها «بيل» فى مسألة الشر أعمق الأثر فى نفس ملكة روسيا ، تلميذة ليبنتس ، فطلبت الى استاذها الفيلسوف أن يتولى دحض هذه الحجج وتفنيدها ، فنهض الفيلسوف لهذه المهمة وصنف باللغة الفرنسية — التى كان يتقنها ايما اتقان — كتابه الموسوم «تيوديسيه» أى العدالة الالهية ، وعنوانه الكامل : «بحث فى خيرية الله وحرية الانسان وأصل الشر» . بادر ليبنتس بنشر هذا الكتاب وقدم بين يديه رسالة عنوانها « مقال فى موافقة العقيدة الدينية للعقل » وفى هذا المقال نرى الفيلسوف يعرض لمزاعم « بيل » بصدد الشر والعناية وينتهى الى تقرير تلك النظرية الموروثة فى علم الدين ، وهى أن حقائق الاعتقاد فوق العقل ، ولكنها ليست تنافيه . ثم أخذ ينبه على وجوب التفريق بين ما هو فوق العقل ، وبين ما ينافى الدين ، وأخذ يقسم الحقائق الى : (١) حقائق عقلية أو أزلية وهى مبنية على مبدأ الذاتية (١) أى أنها ترجع الى أشياء فى ذاتها

(١) مبدأ الذاتيـة هو القائل على حد تعبير المناطقة المحدثين : ما هو ، هو . وما ليس هو ، ليس هو .

ومعناها واحدة ، والقول بضدها يستلزم التناقض . (ب) حقائق حاصلة جائزة ، وتقوم على مبدأ السبب الكافى[١] . وضدها لا يستلزم تناقضاً ما .

وليس شيء مما ينبغى الاعتقاد به بجائز أن يناقض النوع الأول من الحقائق العقلية . أى الأزلية : فمثلا وجود الله لا يكون ممكناً إلا إذا لم يتناقض مضمون الصورة الذهنية مع لفظ الله ، ولم تتناقض الصفات المنسوبة الى الله . لكن رأياً من الآراء يجوز أن يكون فوق ما تعلمنا التجربة . لأن الضرورة العقلية لتسلسل الظواهر — تلك الضرورة التى نجدها عن طريق مبدأ السبب الكافى — هى دائماً محاطة بظروف . فالضرورة المنطقية أو «الميتافيزيقية» لقضية من القضايا تحصل مباشرة أو بالواسطة من امتحان حدود هذه القضية . وضرورة قضية من القضايا الحاصلة ، مثل قدوم الانجليز الى مصر عام ١٨٨٢ ، إنما ترجع الى حوادث سابقة ، كرغبة الانجليز فى الاحتفاظ بالهند أو الاستعمار . . الخ .

وحيث إن تلك الحوادث السابقة ليست فى نفسها ضرورية إلا بمقتضى ظروفها ، وهكذا الى غير نهاية ، فقد جاز أن نقول : إن عدم قدوم الانجليز الى مصر فى تلك السنة ، يبقى ممكناً من الوجهة الميتافيزيقية . ومن أجل هذا يصح أن نعرف الحقائق الحاصلة أو الجائزة : بأنها تلك التى لا يمكن الوصول الى أسبابها الكاملة الا بتحليل لا نهائى يمتنع أن يقوم به العقل الانسانى ، فى حين أنه يكفى تحليل محدود لاثبات الحقائق العقلية الأزلية . ويرى ليبنتس أن مبادئ علم الطبيعة لا تفسر الا بفكرة العناية والتدبير الالهى ، أعنى بمبدأ غائى . ومبدأ السبب الكافى — مبدأ الحقائق الحاصلة — يفضى بنا الى ما وراء التجربة . ثم إن ائتلاف الجواهر الفردة ، والتسلسل القياسى لكل ما يحدث لا يمكن فعلا أن يفسر إلا بكائن مطلق ، خلق الدنيا بمقتضى اختيار صائب سديد . فكل شيء فردى ، وكل حادثة فردية فى نفسها ممكنة ، فلسنا نتوصل اذن الى اتمام سلسلة العلل والاسباب ، وارضاء مبدأ السبب الكافى تمام الرضى ، ما لم نرجع الى سبب أول ، هو سبب لذاته ولا سبب له ، وهو الله .

ويستدل ليبنتس على صواب الاختيار الالهى بقوله : « ان ثمة خارج هذا العالم الموجود أى فى العقل الالهى — عدداً لا نهاية له من العوالم الممكنة الوجود ، والتى لا يخضع كل

(١) مبدأ السبب الكافى هو — كما يعرفه ليبنتس نفسه — «لا شيء يحصل مطلقاً دون أن يكون هناك علة أو سبب معين على الأقل ، يبرر لماذا كان وجود هذا الشيء أولى من عدم وجوده ، ولماذا كان هذا هكذا أولى من أن يكون على أى شكل آخر »

واحد منها الا لمبدأ عدم التناقض . فن بين جميع تلك العوالم الممكنة ، أيها تقع عليه المشيئة الالهية العالية ، وأيها يختاره الله فيمنحه الوجود ؟ يجيب ليبنتس من غير تردد بقوله « إن الحكمة العالية المقرونة بخيرية لا نهاية لها ، لا يعوزها أن تختار أحسن الأشياء »

واذن فالله قد خلق بالضرورة أحسن العوالم الممكنة ، والدنيا الراهنة هى خير ما يمكن أن تكون . ذلك هو مذهب ليبنتس فى التفاؤل الذى نادى به ، وكان بإذاعته من المحسنين .

***

وإليك صورة ملخصة من طريقته فى الاستدلال على هذا المذهب المشهور قال : « الله هو السبب الأول للأشياء » فينبغى أن يكون ذا كمال مطلق فى القدرة والحكمة والخيرية ( ) ولما كان الله إنما يتصرف فى خلق الأشياء وفق عقله الاسمى اللامحدود ، فان جليل حكمته المقرونة بخيرية لا حد لها ، لا يعوزها أن تختار من العوالم أحسنها ، لأنه إذا لم يكن الأحسن من بين جميع العوالم الممكنة ، لما اختار الله منها شيئاً . إذن فالله قد خلق ضرورة خير العوالم الممكنة ، اعنى العالم الذى يحقق اكبر قسط ممكن من الكمال . »

ورب معترض يقول : إذا كان الله قد اختار من بين جميع الممكنات أحسنها ، فلم اذاً جاء الشر ولم كانت الخطيئة ؟ وقد كان جائزاً أن يوجد المدبر الاول خيراً محضاً مبرأ عن الشر فيرد ليبنتس بأن « تصور عالم ليس فيه شر ولا ألم هو أقصوصة من الاقاصيص ، ومحض خيالات(٢) » ولو محى الشر من الوجود أصلا ، فحينئذ لم يكن هو هو ، ولم يكن أحسن العوالم الممكنة . ولئن كان محو الشر جائزاً فى الوجود المطلق فليس بجائز فى الوجود الانسانى وهو بطبيعته محدود ، ولن يطلب الكمال فى شيء انسانى أيا كان . ولا ينبغى أن نقصر نظرنا على جزء من العالم . بل يجب النظر الى المجموع المرتبطة أجزاؤه أوثق ارتباط ، وأحوال العالم مدبرة بعضها بالقياس الى بعض أحكم تدبير ، وما قد يبدو نقصاً فى الجزء ، يكون فى الكل كمالا .

ألست ترى أن الصوت يكون فى نفسه « نشاداً » فاذا التأم فى مجموع موسيقى حصل منه تأثير شجى فائق ؟ والكل انما رتب فيه الله المدبر القوى الفعالة والمنفعلة والسماوية والارضية ، الطبيعية والنفسانية ، بحيث يؤدى الى النظام الكلى ، مع استحالة أن يكون

(١) كتاب « العدالة الالهية فقرة ٧ »

(٢) كتاب « العدالة الالهية فقرة ١٠ . . . »

هو على ما هو عليه ولا يؤدى لها شرورا . على أنه قد يحدث من الشر خير فى بعض الأحيان والشر فى أشخاص الموجودات قليل ، ومع ذلك فان وجود ذلك الشر فى الأشياء ضرورة تابعة للحاجة الى الخير ، كالنار فان كمالها الاحراق ، والاحراق بالقياس اليها خير وان كان شراً بالقياس الى المتألم منها .

يقولون : إن الشر فى الدنيا أكثر من الخير وأغلب . ويقول ليبنتس : ان هـذا خطأ فان الشر كثير ، ولكنه ليس بأكثر من الخير . فالأمراض كثيرة والمرضى كثيرون ولكنهم ليسوا بأكثر من الاصحاء المعافين . والواقع أن الله قد أسبغ علينا نعما وخيرات وفيرة ، ولكن قلة انتباهنا اليها تقلل من شأنها ، والعادة تجعلنا أقل شعوراً بها .

ويقول « بيل » إن الانسان شقى شرير ، وان المستشفيات والسجون منتشرة فى كل مكان ، وما التاريخ إلا مجموعة من جرائم الجنس الانسانى ومصائبه »

فيرد عليه ليبنتس : « أنا أعتقد أن فى ذلك غلواً . فان فى حياة الانسان من الخير شيئاً كثيراً لا يمكن أن يقاس به الشر ، كما يوجد من المنازل كثرة لا تقاس بها السجون . وعندى أن من عيوب المؤرخين أنهم يهتمون بنواحى الشر أكثر مما يهتمون بنواحى الخير[1] . »

لـكن كون هـذا العالم خير العوالم الممكنة لا يعنى أن يكون خلوا من الجوانب السيئة . مبرأ من الشوائب والعيوب . وهل يستطيع الانسان أن يقدر الشباب الا اذا جاوزه الى سن الشيخوخة ؟ ولقد ورد فى الحديث الشريف ما معناه ، ان الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه الا المرضى . فلكى يشعر الانسان بالسعادة اذا أقبلت ، يجب أن يكون قد عرف الشقاء . وبغـير الألم لا يكون للذة معنى . حكم على سقراط الفيلسوف بالموت ، فأودع السجن ، ولبث فيه مقيداً بالأغلال . ويروى لنا القفطى صاحب كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » أن سقراط حينما فك عنه القيد شعر بشىء من اللذة فقال أمام جمع من أصحابه وتلاميذه : « ما أعجب فعل السياسة الالهية ! كيف قرنت الأضداد بعضها ببعض ، فانه لا يكاد يكون لذة إلا تبعها ألم ، ولا ألم إلا تبعه لذة . فانه قد عرض لنا بعد الألم الذى كنا نجده من ثقل الحديد فى موضعه لذة »

(١) « عدالة الهية فقرة ١٤٨ »

وكم من أناس يبيتون آمنين فى سربهم ، معافين فى أبدانهم ، وهم مع ذلك لا يشعرون بهذه النعمة ولا يشكرون ، حتى إذا مسهم المرض وولت عنهم السلامة ، أصبحوا عليها نادمين .

على أننا نعلم أن شرا من الشرور ، كثيراً ما يكون مصدر خير كثير ، وقائد الجيش تحدث منه أحياناً غلطة تفضى الى الظفر فى معركة عظيمة .

يجب أن نعترف مع هذا بأن فى الحياة الدنيا مساوئ ، وقلاقل أظهرها ما يصيب الكثيرين من الأخيار ، من حظ عاثر ، وما يرتع فيه الأشرار من عز وسلطان[1] ولكنا نقول مقتنعين أنه اذا كان الكرام الأبرار لا يجدون جزاءهم فى هذه الدار ، ففى الدار الأخرى خير عزاء وجزاء . ذلك مايقضى به الدين والعقل أيضاً[2]

من الناس من يحلو لهم دائماً أن يشتكوا الاقدار . ويذموا الزمان . وهذا ناشىء فى الحقيقة من ضعف النفوس ، وقلة رسوخ الايمان ، ثم هو جزء من الاعتراض على تدبير الله سبحانه وما كانوا فيه من المنصفين . فينبغى ألا نسلك صراط أولئك المتذمرين الساخطين . وأن نقبل على الحياة باسمين متفائلين . وكذلك شأن المؤمنين المحسنين .

***

هذا مجمل لمذهب التفاؤل كما شاء أن يعرضه علينا فيلسوف الألمان ونلخصه نحن فى تلك الكلمة الاسلامية المشهورة . « ليس فى الامكان أبدع مما كان » . وقد سقناه اليوم فى طريق الجمع بين الفلسفة والدين . وقصدنا أن نوفق بذلك الى أن نرفع شكوك المرتابين ، وندفع عن العناية شبه المنكرين . ونسرى عن النفوس من وقع فاسفة العابسين المتشائمين ، وعلى الله وحده اعتمادنا ، وبه نستعين .

أما معضلة الشر . وكيف نشأ ودخل فى القضاء الالهى ، فوعدنا بسطها فى الشهر القادم إن أذن الله ؟

عثمان أمين

---

(١) « عدالة إلهية » ١١ فقرة ١٦

(٢) « عدالة إلهية » ١١ فقرة ١٧

في الأدب العربي

بديع الزمان الهمذاني (١)

بقلم أديب معروف

— ٢ —

رحلاته الى الأقاليم الشرقية ووفاته بهراه

بعد أن يقضى الزمان لبانته ، يترك نيسابور ، وهو أعلى منزلة مما كان يوم دخلها ، ثم هو عملا بقوله (الماء إذا طال مكثه، ظهر خبثه ، وإذا سكن متنه ، تحرك نتنه ، وكذلك الضيف يسمج لقاؤه ، إذا طال ثواؤه ، ويثقل ظله ، إذا انتهى محله) يأخذ فى السفر ، ويديم التنقل ويطوف البلاد ، وهو يشعر بالنصر ، وعلو القدر ، فلا يترك مدينة شهيرة من مدن خراسان وسجستان والسند إلا ويحلها ، وفى رحلاته يتصل بالأمراء ويمدحهم ، وينال من منحهم ما لم يكن يحلم به ، ثم يحط رحاله بهراة ، وإليها ينتهى سيره ، وبها تدركه منيته ، وتجنباً للاطالة لا نريد أن نذكر لك من هؤلاء الأمراء الا أميرين :

(١) خلف بن أحمد أمير سجستان الخارج على الدولة السامانيـة المتوفى سنة ٣٩٩ ويرجع نسبه إلى عمرو بن الليث الصفارى صاحب سجستان ، وبديع الزمان يمدح خلفاً هذا بقصيدة مطلعها :

سماء الدجى ما هذه الحدق النجل   أصدر الدجى حال وجيد الضحى عطل

وفيها يقول :

ويا ملكا أدنى مناقبـه العلى   وأيسر ما فيه السماحة والبـذل

هو البدر إلا أنه البحر زاخر   سوى أنه الضرغام لـكنه الوبل

(١) تتمة البحث الذى نشر فى الجزء الرابع

محاسن يبديها العيان كما ترى وإن نحن حدثنا بها رفع العقل
فقولا لوسام المكارم باسمه ليهنك ان لم تبق مكرمة غفل (١)
وجارك أفراد الملوك الى الندى وحقاً لقد أعجزتهم ولك الخصل (٢)
سما بك من عمرو ويعقوب محتد كذا الاصل مفخورا به وكذا النسل

(٢) السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى صاحب السند وخراسان ، المتوفى سنة ٤٢١ . وقد كان بديع الزمان يتتبع خطواته ، ويتعرف حركاته وسكناته ، ويهنئه بفتوحاته ومما قال فى مدحه قصيدة شهيرة هى :

تعالى الله ما شاء وزاد الله إيمانى
أأفريدون فى التاج أم الأسكندر الثانى
أم الرجعة قد عادت إلينا بسليمان
أظلت شمس محمود على أنجم سامان
وأمسى أهل بهرام عبيداً لابن خاقان
إذا ما ركب الفيل لحرب أو لميدان
رأت عيناك سلطاناً على منكب شيطان
فمن واسطة الهند إلى ساحة جرجان
ومن قاصية السند إلى أقصى خراسان
على مقتبل العمر وفى مفتتح الشان
فيوما رسل الشاه ويوما رسل الخان
فما يغرب بالمغرب عن طاعتك اثنان
لك السرج إذا شئت على كاهل كيوان
أيا والى بغداد ويا صاحب غمدان
تأمل مائتى فيل على سبعة (٣) أركان
يقلبن أساطين ويلعبن بثعبان (٤)

(١) غفل : مكان خالية .
(٢) الخصل : الخطر الذى يراهن عليه ؛ يقال أحرز فلان خصلة إذا غلب .
(٣) أراد بالسبعة أركان الجيش وهى القلب والميمنة والميسرة والجناحان والساقة والمقدمة .
(٤) الغرض من الثعبان هو خرطوم الفيلة لأنه يشبه الثعبان فى طوله وتلويه .

عليهن تجافيف (١) يشهرن بألوان
ويأجوج ومأجوج من الجند تموجان

مواهب بديع الزمان

يكاد يجمع علماء الأدب على أن بديع الزمان كان واحد عصره، وأعجوبة دهره، وأنه قد وصل فى الكتابة الفنية الى منزلة لم يصل اليها أحد من قبله، ولا من بعده، وينقل إلينا هؤلاء الأدباء فيما ينقلونه أنه كان يأتى بالعجائب، ويظهر المعجزات، لاسيما إبان مهاجاته للخوارزمى .

ومهما يكن فى الأخبار التى نقلت الينا عن بديع الزمان، وعن العجائب التى كانت تصدر عنه، والمعجزات الأدبية التى تظهر على يديه، فأننا لا ننكر عليه فضله اذ أنه فيما وصل الينا من نظمه ونثره ما يدل على أنه كان كاتباً مجيداً، حاضر الذهن، قوى العارضة، حاد الذاكرة، ولكن يجدر بنا أن نتساءل عما عساه أن يكون، فيما يرويه الرواة عن بديع الزمان من مبالغة .

معقول أن ينظر بديع الزمان لأول مرة الى أربع أوراق، أو خمس مكتوبة، ثم يقدر على اعادة ما فيها بدون أن يخطئ، ومعقول أن يطلب منه نقل ثلاثة أو أربعة من الابيات الفارسية الى العربية شعراً مع تعيين البحر والقافية فيفعل .

ومعقول أن يقترح عليه معنى من المعانى، فينشئ فيه رسالة، مبتدئاً بآخر السطور منتهياً بأولها، كل هذا معقول، وكله يبرهن على حدة ذاكرة ذلك الأديب، وقوة عارضته.

ولكن لاينبغى لنا أن نبالغ فنقول إنه كان يعيد مايقرأ بدون أن يخطئ حتى ولا فى حرف منه، أو نقول انه كان ينقل القصيدة الفارسية الى أخرى عربية لوقته وساعته، فيأتى شعره عربياً جيداً، أو ندعى أنه كان ينشئ الرسائل التى كانت تقترح عليه على الفور بدون أن تعطى له فرصة للتفكير — نعم لاينبغى أن نبالغ بل يجب ألا نقبل قول من ينقل هذه المبالغات الا على أنها مبالغات . ولو أنا رجعنا إلى مصادر هذه الرواية لوجدناها محصورة جداً لا تتجاوز يتيمة الدهر، وما رواه بديع الزمان عن نفسه فى رسائله، أما الثعالبى صاحب يتيمة الدهر (٣٥٠—٤٣٩) فانه معروف بالمبالغة فى اطراء أهل عصره، وأما ما كتبه بديع الزمان عن نفسه، فلا يمكن أن ينهض دليلا على صدق كل ما فى هذه

الرواية من التفصيلات ، ولأمر ما أهمل ابن خلكان كل هذه المعجزات ، كأنما يشير بذلك إلى أنه لا يثق بما نقل عنها . فنحن نرجح أن فى هذه الرواية مبالغة فى تفصيلاتها لا فى أصلها .

نثره :

ولكنا مع ذلك لا نجحد فضل بديع الزمان ، ولا ننكر تقدمه على غيره من كتاب عصره ، فرسائله تشهد بعلو كعبه وارتفاع منزلته ، ومقاماته تدل على تفوقه ومقدرته النادرة المثال ، والحريرى مع تأخره فى الزمان ، يشهد لأستاذه بالفضل ، ويعترف له بالسبق ، ويكفيه فخراً أن لقب ببديع الزمان .

رسائله :

وأول ما يلفت نظر القارئ لها سعة اطلاعه ، وغزارة مادته اللغوية ، وقدرته على جمع شوارد الألفاظ ، والتأليف بين نوادر الكلمات ، وصوغ بديع الجمل ، وحسن اقتباس الآيات القرآنية ، والابيات الشعرية ، والأمثال العربية ، والاتيان بها فى موضعها ، كل هذه مع حسن النظم ورشاقة الأساليب ، ودقة التعبيرات ، مما يدل على ما فى طبعه من رقة ، وفى روحه من خفة ، وفى مزاجه من اعتدال ، ولا بدع فقد خلعت عليه اللغة الفارسية عذوبتها ، واكسبته البيئة الايرانية نضارتها وبهجتها . وأخلق بمن اختلط بالأمراء ، وحضر مجالس الأمراء أن يكون رقيق الشعر ، دقيق الحس ، فصيح المقال .

وبديع الزمان ممن استخدموا النثر فى الأغراض الشعرية ، كالمهاجاة ، والمفاخرة ، والاستجداء ، والمدح ، والاستعطاف ، وله مجموعة رسائل مطبوعة مشروحة كثيرة العدد كتبت فى فنون شتى كالشوق ، والشكر ، والشكوى ، والعتاب ، والتهنئة والتعزية ، والحكم .

نماذج من رسائله :

قد مر عليك بعض رسائل البديع ، ولكنا نود أن نورد عليك صوراً أخرى من نثره لتتبين صحة ماقلناه عن مقدرته .

فمن أعذب اعتذاره ورقيق استعطافه ، ما كتب به الى القاسم الكرجى ، وهو قوله :

يعز على أطال الله بقاء الشيخ الرئيس ، أن ينوب فى خدمته قلمى عن قدمى ، ويسعد برؤيته رسولى دون وصولى ، ويرد شرعة الأنس كتابى قبل ركابى . ولكن ما الحيلة

والعوائق جمة .

وعلى أن أسعى وليـ س على إدراك النجاح

وقد حضرت داره ، وقبلت جداره ، وما بى حب الجدران ، ولـكن شغفاً بالقطان ، ولا عشق الحيطان ، ولـكن شوقاً الى السكان ، وحين عدت العوادى عنه أصليت ضمير الشوق على لسان القلم ، معتذراً الى مولاى عن تقصير وقع ، وفتور فى الخدمة عرض . ولـكنى أقول :

إن يكن تركى لقصدك ذنباً فكفى ألا أراك عقابا

ومما قاله فى الاستمناح ما كتبه الى بعض أصدقائه وهو :

لك أعزك الله عادة فضل فى كل فصل ، ولنا شبه مقت فى كل وقت ، ولعمرى أن ذا الحاجة مقيت الطلعة ، ثقيل الوطأة ، ولـكن ليسوا سواء .

ومما قاله فى الشكوى ما كتبه الى أبى نصر الميكالى . يشكو اليه خليفته بهراة وهو :

أطال الله بقاء الشيخ الجليل : الماء إذا طال مكثه ، ظهر خبثه ، واذا سكن متنه ، تحرك نتنه ، كذلك الضيف يسمج لقاؤه ، إذا طال ثواؤه ، ويثقل ظله ، إذا انتهى محله ، وقد حلبت أشطر الدهر خمسة أشهر بهراه ، وان لم تكن دار مثلى لولا مقامه ، وما كانت تسعنى لولا ذمامه ، ولى فى بيتى قيس بن الملوح (الذى هو مجنون ليلى) مثـل صدق ، وإن صدر مصدر عشق :

وأدنيتنى حتى إذا ماسبيتنى بقول يحل العصم سهل الأباطح
تجافيت عنى حيث لا لى حيلة وخلفت ماخلفت بين الجوانح

نعم فنصتنى نعم الشيخ ، فلما علق الجناح ، وقلق البراح ، طار مطار الريح لا بل مطار الروح ، وتركتنى بين قوم ، ينقض مسهم الطهارة ، وتوهن أكفهم الحجارة —

ومما كتب البديع الى أبى القاسم الـكرجى يعاتبه قوله :

فأنى وان كنت فى مقتبل العمر ، فقد حلبت شطرى الدهر ، وركبت ظهرى البر والبحر ، ولقيت وفدى الخير والشر ، وصافحت يدى النفع والضر . فمالى صغرت هذا الصغر فى عينه ، وما الذى أزرى بى عنده حتى احتجب ، وقد قصدته ، ولزم أرضه ، وقد حضرته ، وأنا أحاشيه أن يجهل قدر الفضل ، أو يجحد فضل العلم ، أو يمتطى ظهر التيه

على أهليه ، وأسأله أن يختصنى بفضل اعظام إن زلت بى قدم فى قصده مرة والسلام .

وكتب يهنئ بمولود وهو من جيد ماقال :

حقاً لقد أنجز الاقبال وعده ، ووافق الطالع سعده ، وان الشأن لفيما بعده ، وحبذا الأصل وفرعه ، وبورك الغيث وصوبه ، وأينع الروض ونوره ، وحبذا سماء أطلعت فرقداً ، وغابة أبرزت أسداً ، وظهر وافق سنداً ، وذكر يبقى أبداً ، ومجد يسمى ولداً وشرف لحمة وسداً .

أنجب الأيام والداه به إذ نجلاه فنعم ما نجلا

وكتب يعزى بعض الرؤساء :

إذا ما الدهر جر على أناس حوادثه أناخ بآخرين

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

أحسن ما فى الدهر عمومه بالنوائب ، وخصوصه بالرغائب ، فهو يدعو الجفلى إذا أساء ويخص بالنعمة اذا شاء — وليتأمل المرء كيف كان قبلا ، فان كان العدم أصلا ، والوجود فصلا ، فليعلم الموت عدلا ، والعاقل من رقع من جوانب الدهر ما ساء بما سر ، ليذهب ما نفع بما ضر ، فان أحب أن يحزن ، فلينظر يمنة ، هل يرى إلا محنة ، ثم ليعطف يسرة هل يرى الا حسرة ، والموت — أطال الله بقاء الشيخ — خطب قد عظم حتى هان ، وأمر قد خشن حتى لان ، ونكر قد عم حتى عاد عرفاً ، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها ، وخبثت حتى صار أقل عيوبها .

وإنك لتجد الحكم والأمثال منبثة فى رسائل البديع ، ومن مشهور حكمه :

المرء لا يعرف ببرده ، كالسيف لا يعرف بغمده — الحذق لا يزيد الرزق ، والدعة لا تحجب السعة ، الحبل لا يبرم الا بالفتل ، والثور لا يربى الا للقتل — أسفل ما يكون الاريب اذا علا ، ما كل مائع ماء ، ولا كل سقف سماء — النذل لا يألم العذل — كذب القميص ، لا ذنب للذيب فى تلك الأكاذيب — ما كل بيت لله ولا كل محمد رسول الله — ان بعد الكدر صفواً ، وبعد المطر صحواً :

مقاماته :

وللبديع عدا رسائله مقامات تربو على الخمسين ، مطبوعة مشروحة وتمتاز برقة أسلوبها

وسهولة ألفاظها وتراكيبها ، وهى قصيرة بالنسبة لمقامات الحريرى . وموضوعها يكاد يكون واحداً ، وهو الكدية ، والاستجداء بالطرق المختلفة التى يرويها عيسى بن هشام عن أبى الفتح الاسكندرى ، ومن جيد مقاماته مقامة تجدها بكتاب « النصوص الأدبية »

وهاك شطراً من مقاماته الخلفية . نسبة الى خلف بن أحمد السابق الذكر ، وفيها يقص عيسى بن هشام قصص صديق له ، كان صحبه الى البصرة فيقول :

فلما وصلنا البصرة ، غاب عنى أياماً ، فضقت بغيبته ذرعاً ، ولم أملك صبراً ، فأخذت أفتش جيوب البلد حتى وجدته ، فقلت : ما الذى أنكرت ، ولم هجرت ، فقال : إن الوحشة تقدح فى الصدر اقتداح النار فى الزند ، فان أطفئت بادت وتلاشت ، وان عادت طارت وطاشت ، والقطر إذا تتابع على الاناء امتلأ وفاض ، والعتب إذا ترك فرخ وباض ، والحر لا يعلقه شرك كالعطاء ، ولا يطرده صوت كالجفاء — فمن لقينا بأنف طويل لقيناه بخرطوم فيل ، وأنت لم تغرسنى ليقلعنى غلامك ، ولا اشتريتنى لتبيعنى خدامك ، والمرء من علاماته كالكتاب من عنوانه ، فان كان جفاؤهم شيئاً أمرت به ، فما الذى أوجب وان لم تكن علمت به كان أعجب . ثم قال :

ظفرت يدا خلف بن أحمد انه ... سهل الفناء مؤدب الخدام
أو ما رأيت الجود يجتاز الورى ... ويحل من يده بدار مقام

شعره :

وللبديع عدا الاشعار التى تتخلل رسائله ومقاماته . قصائد غر طوال . معظمها فى المدح ، وقلما تجد قصيدة من قصائده الا وهى مصدرة بالغزل والنسيب ، وهاك نماذج أخرى من شعره غير ما سبق .

قال يمدح أحد الامراء :

طرباً لقد رق الظلا ... م ورق أنفاس الصباح
ومرى الى القلب العليل ... عليل أنفاس الرياح
ومليحة ترنو بنر ... جسة وتبسم عن اقاح
قامت وقد برد الحلى ... تميس فى ثنى الوشاح
تشدو وكل غنائها ... برد على كبد قراح

يا ليل هل لك من صبا … ح أم لنجمك من براح
سأريق ماء شبيبتى … ما بين ريحان وراح
فيم العتاب ولا لهم … غيرى ولا لهم صلاحى
ولعـــاذلاتى فى المليـ … ـحة عاذلاتك فى السماح
وهواى للبيض الصبا … ح هواك للبيض الصفاح
وولوع كفى بالقـدا … ح ولوع كفك بالرماح
وعليك ادمان الندى … وعلى إدمان امتداحى
فليعـل رأيك أنه … يلوى يد القدر المتاح
وأفخر فانك فى الملو … ك لك المعلى فى القداح

وقال يمدح ابن فريغون من الامراء :

ألم تر أنى فى نهضتى … لقيت المنى والغنى والاميرا
ولما التقينا شممت الترا … ب وكنت امرأ لا أشم العبيرا
لقيت امرأ ملء عين الزما … ن يعلو سحاباً ويرسو ثبيرا
لآل فريغون فى المكرما … ت يد أولا واعتذار أخيرا
إذا ما حللت بمغنـــــاهم … رأيت نعيماً وملكا كبيرا

ومما قاله فى مدح بنى ميكال الفضلاء :

يا غلام الكأس فاليأ … س من الناس مريح
يا بنى ميكال والجو … لعـــلاتى مزيح
شرفاً إن مجال الفضل … فيكم لفسيح
وعلى قدر سنا الممدو … ح يأتيـك المديح
فهناك الشرف الار … فع والطرف الطموح

ومن جيد مدحه قوله :

وكان يحكيك صوب الغيث منسكباً … لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت … والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

وقوله :

يا أيها الملك الذى بعساكر الآمال يغزى
خلقت يداك على العدى سيفاً وللعافين كنزا
لا زلت يا كنف الاسـ ـيرلنا من الأحداث حرزا

ولم يكن شعر بديع الزمان من الجودة مثل نثره ، ولذلك كان نثره أسير فى الآفاق واكثر جرياناً على الألسنة ، وقلما تجد أديباً نبغ فى الصناعتين ، وبلغ فيهما منزلة واحدة

موازنة :

يعد بديع الزمان فارس حلبة الكتاب فى عصره ، والمتفوق على أهل زمنه وهو وان تأخر به الزمان مقدم على ابن العميد رئيس الطبقة ، ويمتاز عن رجالها بالتزام السجع القصير الفواصل ، والاكثار من استعمال المحسنات البديعية بدون تكلف ، ونحن اذا قارناه بكتاب المقامات وجدناه يربو على أستاذه ابن فارس بغزارة المادة ، وحدة الذاكرة ، وسعة الاطلاع . أما تلميذه الحريرى فقد اعترف له بالفضل ، ولا غرو فقد فضله برقة الألفاظ ، وسلاسة الاسلوب ، وعدم التكلف ، ولذا كان بديع الزمان من ممثلى الطريقة العميدية ، أما الحريرى فهو الى الطريقة الفاضلية أقرب ، وهو برجالها أشبه .

الخلاصة :

مما تقدم يتسنى لك أن تستنتج أن بديع الزمان كان أحد الأفذاذ ، وأنه كان كاتباً أولا ، وشاعراً ثانياً ، وأنه كان السابق على أدباء دهره ، المقدم على أبناء عصره المولع بالمحسنات البديعية ، المتفنن فى التراكيب ، المبدع فى الأساليب ، وأنه فوق ذلك كله قد استفاد من بيئة عصره ، ومن الظروف المحيطة به أعظم فائدة ، فلم يترك فرصة الا انتهزها ، فتنقل فى البلاد ، ووفد على العلماء ، ونال الحظوة لدى الأمراء ، ولكن واأسفاه لم يعصمه أدبه من المنية ، ولم يمنعه ماله من شرب كأسها لما حان حينه ، وانقضى أجله مأسوفاً عليه .

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

الى هنا ينتهى بحثنا المختصر فى تاريخ ذلك الاديب ، والله يهدينا سواء السبيل انه سميع قريب ؟ (ح . ع)

المدنية الاسلامية[1]
وأثرهـــا فى أوربا

للأديب الأفغانى محمد سعيد بخت ولى

قال المؤرخ مورفى فى كتابه تاريخ دولة العرب فى أسبانيا : يجب أن نعترف بأن العرب قد أجادوا تشخيص الأعراض . ومنهم عرفنا أول وسائل لمعالجة الجدرى والحصبة وصعوبة البلع . وكان أثمن ما استحدثوه فى فن المعالجة العقاقير الملينة بدل المسهلات الحادة ، التى كان يستعملها اليونان بكثرة . ونبغوا أيضاً فى مباحث التشريح والجراحة ، وأتقنوا فن الصيدلة وغيرها من فنون الطب المتعددة ، حيث لا يتسع المجال لذكرها . هذا وقد فاقت أبحاثهم فى الرياضيات أبحاثهم فى الفلسفة . وهم الذين وضعوا علم الجبر الذى ابتكره جابر الرياضى الأشبيلى المتوفى سنة ١١٩٦ م ، وقد تبحروا أيضاً فى الفلك وخواص الكواكب ، ولهم فيه مباحث جليلة الشأن .

على أن فى نبوغ العرب فى الكيمياء ما يستثير اعجاب أوربا الحديثة . والحق يقال ان العرب هم الذين اكتشفوا علم الكيمياء ، واستخدموها فى الطب والفنون والصناعات ، مثل تنقية المعادن وصبغ الأصواف بالألوان البديعة ، وتركيب الروائح العطرية ، ودبغ الجلود . وقد عرف العرب فى القرن العاشر عمليات التقطير ، وتحضير الكحول ، واكتشفوا الحوامض المعدنية ، والقلويات النباتية والمعدنية . ولا تزال كلمة : الكحول والأنبيق ، والقلى تدل على أصلها العربى . أما الموسيقى فقد ازدهرت أيما ازدهار فى عهد بنى أمية بالأندلس ، فى القرنين التاسع والعاشر .

وقد بلغ العرب شأواً بعيداً فى الزراعة والصناعة . ففى مكتبة الأسكوريال بأسبانيا كتاب فى الزراعة ، لأبى زكريا الأشبيلى ، يدل على مبلغ تقدمهم فى معرفة طبائع الأرض واستخراج كنوزها ، وطرق الرى والصرف وملاءمة التربة ، والطقس لزرع النباتات المختلفة . قال كاباتون : « كانت مدنية العرب فى أسبانيا ظاهرة فى الأمور المادية وذلك بما استعملوه من الوسائط الزراعية لأخصاب الأراضى البائرة فى الأندلس ، الى أن

---

(١) تتمة الموضوع الذى نشر فى الجزء الماضى

قال دى لاجريز : « فى الوقت الذى كانت فيه ظلمات الجهل تغمر الدول التى تقف الآن موقف رأس المدنية ، كان العرب سادة الأسبان ، قد أقاموا هلال محمد فى مكان صليب المسيح ، ونظموا وسائل الرى بطريقة تستحق الاعجاب ، وشيدوا صروحا فخمة ، وأجادوا الشعر ، وأحيوا الفنون الجميلة . وفى دياجير القرون الوسطى أناروا أسبانيا بنور ساطع ، كان الناس سيجدون مشقة وعناء فى فهمه وتعليله ، لولا أن خلده التاريخ الخ . . »

*
* *

ولننظر قليلا الى الاسلام وكيف عامل المرأة التى هى المقياس الحقيقى لارتقاء الأمم وانحطاطها ، فقد منحها من الحقوق ما عجزت جميع الحضارات قديماً وحديثاً عن منحه . وإن من أخبار المرأة فى الاسلام ما امتلأت به المجلدات الضخمة والأسفار العظيمة . فلنقتصر على لمحة وجيزة عنها لنعلم مبلغ ما وصلت اليه من المجد والرفعة .

فكان تعليم البنات سائغاً فى الاسلام ، فلما ترى منهن من لا يحفظن الشعر وينظمنه ويترسلن فيه ، كما تفعل بنات أوربا اليوم . وقد برز منهن كثيرات فى العلم ، والأدب والفلسفة . حتى أن قاضى القضاة شهاب الدين بن خلكان كان تلميذاً على احداهن ، وهى زينب بنت أبى القاسم التى أجازها العلامة الزمخشرى . وكان منهن الخطيبات المفوهات مثل الزرقاء بنت عدى ، وأم الخير البارقية ، وهما ممن اشتهرن فى واقعة صفين . وهذه عالية بنت المهدى أخت هارون الرشيد . كانت عالمة جليلة تساجل الأدباء ، وتناظر العلماء وولادة بنت المستكفى حيث كان لها مجلس تمتد فيه الموائد ، ويجتمع اليها فيه صفوة العلماء والحكماء ، والأدباء والشعراء . ووجد منهن من تقلدت مهام الدولة . مثل الزباء ملكة العراق ، وضيفة خاتون صاحبة حلب ، التى قامت بالملك خير قيام ، وغازية صاحبة حماة ، وغيرها مما لا يتسع المقام لذكرهن .

ولنذكر كيف انتقلت المدنية الاسلامية الى أوربا ، فانه من المعلوم لما توطد الملك للعرب فى الشرق والاندلس . أرادوا أن يفتحوا أوربا فغزوا فرنسا واستولوا منها على سبتمانيا . ومدينة ناربون . وجعلوها قاعدة لأعمالهم الحربية . واستولوا أيضاً على كاركاسون ، ونيم ، وأتون ، وبون ، وسانس ، وافنيون وبوردو . ولما أراد الأمير عبد الرحمن الغافقى أن يستولى على تور ، قام له بينها وبين بواتيه . شارل مارتل من أمراء تلك البلاد ، وصده

عن بلاده ، ومن ذلك الوقت توقف الفتح الاسلامى . وفى ذلك الحادث قال هنرى دى شامبون : « لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجى على تقدم العرب فى فرنسا ، لما وقعت فرنسا فى ظلمات القرون الوسطى . ولما أصيبت بفظائعها ، ولا كابدت المذابح الاهلية الناشئة عن التعصب الدينى والمذهبى ، ولولا ذلك الانتصار البربرى على العرب لنجت اسبانيا من وصمة محاكم التفتيش ، ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون . ونحن مدينون للشعوب العربية بكل محامد حضارتنا فى العلم ، والفن ، والصناعة . مع اننا اليوم نزعم حق السيطرة على تلك الشعوب العريقة فى الفضائل ، وحسبها أنها كانت مثال الكمال البشرى مدة ثمانية قرون بينما كنا يومئذ مثال الهمجية الخ ... »

وبعد أن رجع العرب من موقعة بواتيه أقاموا فى سبتمانيا ، وجعلوا منها أماكن دائمة وعقدوا عهوداً مع أهل البلاد وأدخلوا كثيراً من كلماتهم فى الاصطلاحات اليومية فى الحياة . وكان رجال الكنيسة فى تلك البلاد يؤثرون حكم العرب العادل على حكم الجرمانيين . وأخذت الصلات العديدة تنعقد بين المسيحيين والمسلمين . وفى ذلك العهد انتقلت الى أوربا عادة استعمال الارقام والكسور العشرية ، وبقيت أسماؤها عربية مع ما لحقها من التعديل . قال سيديو : « إن التعابير النادرة جاءت اللغة الفرنسية من العربية أكثر من اللاتينية . إلى أن قال : والعرب أساتذتنا فى العلوم بل فى سائر المعارف البشرية » . ومن المعلوم أن العرب كانوا سادة البحر الابيض المتوسط فى القرن السابع وبعده ، فأعطوا الطليان والفرنسيين الألفاظ البحرية ، وكان ملوك فرنسا يقلدون العرب فى كل شيء . وكان ترتيب الديوان الملكى وتدبير شؤون الحكومة الصقلية على المنوال العربى تماماً . سيما وأن الملك روجر الذى تقلد الملك سنة ١١١٢ م . كان قد نشأ نشأة عربية بحتة فأظهر ميلا عظيما إلى المدنية الاسلامية ، ونسج على منواله فردريك الثانى الذى تسلم مقاليد الحكم سنة ١١٩٤ م . قال يوسف جبر المستشرق الألمانى : « إن البرت الكبير الذى كان أسقفا ألمانيا سنة ١٢٦٠ م . أدهش جميع معاصريه بسعة معلوماته ولا سيما فى الكيميا والعلوم الميكانيكية حتى سموه دكتوراً عاما ، وذلك لأنه اطلع على المخطوطات العربية . وكان يقتبس من كتب الفارابى وابن سينا والغزالى إلى أن قال : وأما روجربيكن الانجليزى فانه اخترع المكرسكوب وذلك على أثر اطلاعه على كتاب أبى الهيثم البصرى »

قال : كما أنهم أسسوا معامل للحرير والجلود والبلور وغزل الصوف ، والقطن والكتان والقصب ، وأقاموا ما لا يحصى من المعاهد العامة وفيها ما يستدعى إعجاب الأمم بأسرها حتى بعد ثمانية قرون من إنشائها الخ . . . »

وقد ذكر ابن حوقل أنه كان فى اسبانيا فى عهد المسلمين مناجم عديدة للذهب والفضة . وكان فى طليطلة وغرناطة مصانع كبيرة للحديد والصلب وكانت الأسلحة والذخائر تصنع بكثرة . ثم تصدر الى افريقيا ، وقد كانت ملكة الاختراع والاستنباط متجسمة فى عقول الأندلسيين الذين منهم أبو القاسم عباس بن فرناس ، حيث صنع فى منزله هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود . وهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة ، واحتال فى تطيير جثمانه ، وكسا نفسه الريش ، ومد له جناحين ، وطار فى الجو مسافة بعيدة ثم سقط . فهو أول من حاول الطيران من بنى البشر . وقد عرفت الطباعة فى الأندلس ، فكان أحد أبنائها وهو عبد الرحمن بن بدر أحد وزراء الناصر ، السابق فى مضمار هذا الاختراع ، قد سبق جوتنبرج الألمانى مخترع الطباعة بنحو ثمانية قرون .

*
* *

وكان المسلمون قد امتد سلطانهم على البحر الأبيض المتوسط ، فملكوا الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل : ميورقة ، ومنورقة ، وسردانيا ، وصقلية ، ومالطة ، واقريطش ، وقبرص

وقال الأستاذ لاين بولى فى كتابه (العرب فى اسبانيا) : لبثت اسبانيا فى قبضة المسلمين ثمانية قرون وضوء حضارتها الزاهرة يبهر أوربا وازدهرت بقاعها الخصبة بمجهود الفاتحين وأنشئت المدائن العظيمة فى سهول الوادى الكبير ووادى يانا ، فلم يبق ثمة ما يذكرنا بماضيها المجيد سوى الأسماء والأسماء فقط » .

هذه نبذة وجيزة عن المدنية الاسلامية وأثرها فى العالم الأوربى تذكرة لنا وذكرى لمجدنا الضائع الذى أهملناه باتباع القشور وترك اللباب فى جميع الأشياء . حيث أرخينا على أنفسنا سجف الكسل والخمول ، واندفعنا الى المجادلات التى لا طائل تحتها . ولم نجعل للوقت قيمة . ففقدنا الدنيا والدين ، وأصبح العبيد سادة لنا . فيالهذا الخسران المبين .

محمد سعيد بخت ولى

نظرات

للاستاذ جورج نقولا عطية

الحياة الباسمة :

لامنى أمس أحد أصدقائى بقوله : إننى أطالع بعض ما تنشره فى الجريدة الفلانية ، والمجلة الفلانية ، واستصوب آراءك ولا أجاريك فى مواضيعك المؤثرة التى تصور فيها الحياة جحيما أرضياً ، وساكنيها لصوصاً وأجلافاً :

أتوق للراحة الكبرى فلم أرها   تنال الا على جسر من التعب

استشهدت أولا بهذا البيت كجواب للصديق الناقم ، وأردفت قائلا : فاذن أنت ترى الحياة باسمة ، لأنك لا تنظر اليها الا من وجهتها الثانية الخلابة ، المتقلبة ، المرائية ، الضحوكة ! ولكن تلك الوجهة المقابلة لحياتك الباسمة هى أكثر ثباتاً ، وأقل لمعاناً ، وأشد مصائباً لقد شبهتك بذاك الذى يضع عيوبه فى ثقب الخرج وراء ظهره ، أما الثقب الثانى فيضع فيه معائب غيره فيراها ، ولكننى نزولا على رغبتك سأحدث قرائى وقارئاتى بين فترة وفترة بمشاهد حياتك الباسمة ، فكن لى بالمرصاد .

الرثاء الحقيقى :

كل قول يأتى عن عقيدة راسخة وإيمان حقيقى ، يكون قولا مشبعاً بالحكمة الخالدة ، مشفوعاً بالصدق والاخلاص . طالع هذا الرثاء واحكم :

أعلمت من حملوا على الأعواد   أرأيت كيف خبا ضياء النادى

جبل هوى لو خر فى البحر اغتدى   من وقعه متلاطم الأزباد

هكذا رثى الشريف الرضى ، أبا اسحاق الصابى . فهذا الرثاء يا سادتنا الشعراء لايشابه رثاءكم فى هذه الأيام .

أنتم ترثون الوجيه والغنى والعظيم فتجعلونه فوق الملائكة ، وما هو إلا تحت مقاعد الشياطين . ورثى أحد الشعراء الأقدمين جعفر البرمكى فقال :

علو فى الحياة وفى الممات لعمرى تلك إحدى المعجزات

ومات جعفر مشنوقاً وفى هذا من البلاغة ما فيه .

أمير الانكليز :

لانقصد هنا بأمير الانكليز ، صاحب السمو « البرنس أوف ويلس » ابن جلالة ملك بريطانيا العظمى ، ولكننا نقصد « الدوس هكسلاى » أمير الروائيين البريطانيين على الاطلاق .

ولد أمير البيان الانكليزى فى ٢٦ تموز ١٨٩٤ وتلقى علومه فى مدرسة « إتون » وجامعة « أوكسفورد . »

وضع الدوس هكسلاى أربع روايات وأشهرها « كروم يلو » التى ترجمت الى الفرنسية بعنوان « جون دى كروم » ورواية « كونتربوان » التى نقلت أيضاً الى الفرنسية مصدرة بمقدمة رائعة من قلم النقاد الفرنسى المعروف « اندريه موروا » الذى يقول : إن شذوذ هكسلاى ، بالمقارنة بينه وبين الروائيين المعاصرين ، هو بلا مراء بمثابة تراكيبه وتضلعه باللغة تضلعاً كاملا ، فيصور لك الحياة من بين نثره وشعره تصويراً خلاباً على مثال صورته الحساسة .

وخلاصة رواية « كونتربوان » التى طالعناها بالفرنسية تنحصر فى أن رساماشيخايموت لكونه أحب الحياة والخلود فيها ، وترى فيما بعد ولده مرتبطاً بعلاقة غرامية مع إحدى « انصاف الفاجرات (Mondaine) وتتعرف أيضاً بأحد أبطالها المشابه لموسولينى بالقوة والحزم ، وكل ماتقرأه فى الرواية يدل دلالة واضحة على أن المؤلف هو بلا منازع أمير الانكليز وترى على غلاف الرواية اسم « الدوس هكسلاى » بقامته النحيلة ونظارتيه غير الحاجبتين لسحر عينيه الهادئتين ، وما يخفيه جبينه من دلائل الذكاء الحاد العجيب .

حكاية :

من حكايات الأقدمين ، أن شابا مر بشيخ فقال له السلام عليك ياسيدى الشيخ . فأجابه وعليك يامن لك الدنيا بأسرها . ومرت خمس سنوات . ثم التقى الاثنان ببعضهما ، فقال الشيخ : يامن لك نصف الدنيا . ومرت سنوات غيرها فالتقيا ، فقال الشيخ : يا من لك ربع الدنيا . ومرت خلافها فالتقيا أيضاً فقال الشيخ للفتى : يامن ليس لك من الدنيا شىء .

والمتنبي يقول ما يقارب هذا المعنى :

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

ومعنى كلام الشيخ فى المرة الأولى : أنت شاب فلك الدنيا بأسرها ، ومعنى الثانى : أنت متزوج الآن فليس لك من ملذات الدنيا إلا نصفها . ومعنى الثالث : لقد رزقت أولاداً فأصبحت رجلا مهموما . ومعنى الرابع : لقد أصبحت كهلا ولم يعد لك فى الدنيا إلا الاستعداد للآخرة .

هذه حكاية كنت أسمعها من العجائز فى ليالى الشتاء .

ولكنها حكاية واقعية ، تدفع سامعها للرضوخ لأحكام القدر ، ولتذكر الماضى البعيد ، خصوصاً إذا كان رجلا شيخاً ذا بنين وأحفاد .

توما !

لما قام المسيح (عليه السلام) من الموت وظهر لتلاميذه ، آمنوا بقيامه ماعدا الزنديق توما ، فلم يصدق الا لما وضع اصبعه فى جراحات معلمه الدامية ، ولو علم توما بأن وضع اصبعه سيجر عليه وبالا عظيما لما كان المسكين رضى بذلك ، إذ بات الناس على ممر الاجيال يقولون لكل عنيد وضعيف الايمان : أنت كتوما !

مالهذا الوجود من أول أو آخر فافتكر به وتعجب

ليتنى قد علمت من أين جئنا والى أين بعد حين سنذهب

هـذان البيتان وضعهما فيلسوف الفرس الذائع الصيت عمر الخيام ، وعربهما فيلسوف ثان هو السيد الزهاوى المعروف ، والظاهر بأن عمر الخيام كصاحبنا توما .

ولكن توما الذى شهد بعينيه مقدرة معلمه فى المعجزات ، انكر قيامه من الممات ، مع أن الخيام لم يشاهد شيئاً من ذاك ، بل كان يحتسى الخمرة . . ويرى بعد ذاك مشاهد الحياة كرؤى الأحلام .

نرجو من الله جل شأنه ، أن يأتينا اليوم بمعجزات الامس ، لنتمكن من الايمان والاعتقاد بكل أسرار الكائنات .

صيدا (لبنان) جورج نقولا عطية

غلطاتى

للأستاذ عبد اللطيف النشار

غلطاتى غلطاتى كلها ضخم شنيعُ
أبتغى الحق ولكنى للدهم تبوع
أجمل الاعمال عندى كل مالا أستطيع
أنا فى الصعب لجوج أنا فى السهل قنوع
فاتنى ما أدرك العاجز. والكبر مضيع
أزدرى ما أكثر الناس له عبد مطيع
من خطايا شرفاء النفس أن يسمو الوضيع
ما ازدرائى منهجا غايته الجاه الرفيع
ماشكاتى حين يشرى المجد منى إذ أبيع ؟
بعته بالزهد فيه واشترى الراضى القنوع
غلطاتى غلطاتى جرحها مر وجيع
وغرور ثقة المرء بما تدرى الجموع
إن تصح فيهم أصاخوا ليس للهمس سميع
لا يكدون ليدروا ما بهم للعلم جوع
حبب الفرد الى الجمع بريق وسطوع
أجدر الناس بأن ينجح من كان يروع
زبرج يبرق فى العين وألوان تشيع
واستوى التافه من بعد لديهم والبديع
ومحال أن يرى الزائف بالنقد الجميع
وغبين أنت اذ تطلبُ مالم يستطيعوا ؟
أحتكاماً لأناس إن تصح فيهم يطيعوا ؟
غلطاتى غلطاتى جمدت منها الدموع

المحاورات السقراطية (١)

بقلم الاستاذ ا . د . لندساى

تعريب الأستاذ

ابراهيم عبد الحميد زكى

٢ — أقوال أرسطو

يشير أرسطو الى سقراط ، فى عدة عبارات ، ويذكر خصائصه كفيلسوف تميزاً له عن أتباعه ومن بينهم أفلاطون وإنه لجدير بنا أن نلاحظ هذه العبارات على قلتها .

فى الكتاب الثالث عشر من الغيبيات يقول: ان ثمة شيئين يمكن اسنادهما بحق الى سقراط . وهما المحاورات فى التعريف العام . ونريد بالمحاورات تلك المحادثات التى تقود فيها مناظرك بواسطة سلسلة من الموافقات . فأما أن سقراط اتخذ هذا الأسلوب من الجدل فواضح فى جميع المصادر التى لدينا .

والتعريف العام هو ما يشير اليه زينوفون عند ما يقول فى الميمورابليا (كتاب ٤) : إن سقراط حاول على الدوام أن يكشف طبيعة كل شىء . وهذا هو الذى أصبح عند أفلاطون البحث عن الفكرة أو المثال :

كلتا هاتين النقطتين منطقيتان .

وفى عبارات أخرى يشير الى الأخلاق . « فى الأدب الكبير » جزء ١ فصل ١ — يقول أرسطو: إن سقراط فى تعاليمه فى الأخلاق كان خيراً من فيثاغورس. ولكنه لم يكن مصيباً « لأنه جعل الفضائل علوماً (أو أشكالا من المعرفة) ولكن هذا رأى مستحيل . ثم يوضح أرسطو سبب استحالته فيقول « وعليه فانه بجعله الفضائل علوماً قد أهمل الجزء غير العاقل من النفس ، وبذلك أهمل كلا من الشهوة والخلق الأدبى . ولذلك فقد كان مخطئاً هنا فيما قاله عن الفضائل ، ثم قسم أفلاطون بعد ذلك — وهو مصيب — النفس الى جزأين : العاقل وغير العاقل »

وتتعلق عبارات أخرى فيما كتب أرسطو بهذه النقطة وهى أن سقراط قال إن الفضيلة

---

(١) راجع الجزء الثالث من هذه المجلة

هى العلم ، فأوقع نفسه فى صعوبات لأنه لم ير أن الفضيلة تنتظم شيئاً آخر فيقول أرسطو « إن كثيرين يقولون إنه من المستحيل إذا نال الانسان المعرفة ألا تكون له قوة الارادة لأنه — كما قال سقراط — اذا كانت المعرفة فى الانسان ، وسيطر عليه شيء آخر وجده كأنه عبد رقيق يصبح الأمر غريباً . لأن سقراط قد قاوم بشدة الفكرة القائلة بأن هناك ضعفاً فى الارادة . فقد قال ان المرء لايفعل عمداً شيئاً ضد ما هو خير ولـكنه يفعل ذلك عن طريق الجهل فقط ولـكن هذا الرأى مناقض للواقع (كتاب الأخلاق الى نيقوماخوس ٧ — ٣)

ويقول فى موضع آخر « لهذه الأسباب يقول بعض الناس ان كل الفضائل أشكال من التبصر ، وفى هذا كان سقراط مخطئاً بعض الشيء ، ومصيباً بعض الشيء ، مخطئاً فى ظنه الفضائل أشكالا من التدبر . ولـكننا نراها تتضمن التدبر »

ويبين أرسطو أن هذا قد ورط سقراط فى الجبرية فيقول « قال سقراط إنه ليس فى قوتنا أن نكون خيرين أو شريرين لأنه كما يقول ، لو أنك سألت أى رجل عما إذا كان يحب أن يكون عادلا أو ظالماً فلن تجد أحداً يختار الظلم . وبمثل ذلك مع الجرأة والجبن وجميع الفضائل الأخرى . وعلى هذا فواضح أنه إذا كان الرجال شريرين فليس ذلك براجع الى ارادتهم . وكذلك فليس بارادتهم اذا كانوا خيرين (الأدب الكبير ١ ٩٠)

ويبين ارسطو أيضاً فى نقد ماتنتج بعد ذلك من جانبية سقراط كيف أنه خلط بين الفضيلة والفنون فيقول : « إن سقراط الشيخ كان يؤمن بأن معرفة الفضيلة هى الغاية ولذلك تساءل عن كنه العدالة والجرأة وهكذا عن عناصر الفضيلة . ولقد بنى ذلك على أساس لأنه ظن أن كل الفضائل أشكال من المعرفة . أى أن معرفة ما هو عادل وكونك عادلا شيء واحد . لأننا إذا تعلمنا الهندسة وبناء المنازل كنا بفعلنا هذا بنائين ومهندسين ولهذا السبب كان يتساءل عن ماهية العدالة ولا يتساءل كيف ولا من أى الشروط توجد . والآن فهذا حق تماماً فى العلوم النظرية لأن علم الفلك والعلوم الطبيعية والهندسة لا تتعلق بشيء سوى المعرفة والتأمل فى طبيعة موضوع هذه العلوم . ولو أن ذلك لايمنع كونها قد تصبح نافعة لنا لأغراض كثيرة ضرورية . ولـكن فى العلوم المنتجة الغاية شيء منفصل عن العلم والمعرفة . فمثلا الصحة مختلفة من الدواء ، والدستور المنظم مختلف عن

السياسة . ولا شك أن معرفة كل الأشياء أمر حسن . أما اذا كان الأمر مع الفضيلة فأكثر الأشياء قيمة هو ليس أن تعرف ما هى الفضيلة ولكن أن تعرف شروطها لأننا لا نريد أن نعرف ماهية الشجاعة ولكن أن نكون شجعاناً كما أننا لا نود أن نعرف كنه العدالة ولكن نود أن نكون عادلين . فمثلا لأن تكون متمتعاً بالصحة خيراً من أن تعرف ما هى الصحة . ولأن تكون فى حالة حسنة خيراً من أن تعرف ما هى الحالة الحسنة (الأخلاق الى أويديم ١ ، ٥)

كل هذا الدليل، وما بقى منه ذو أثر واحد. وهو أنه يرينا أن تعاليم سقراط الرئيسية كانت اثبات أن الفضيلة والمعرفة شىء واحد أو بمعنى آخر أنه قد صير الأخلاق عقلية تماماً . وانه كما هو أمر طبيعى بالنسبة لمن هو فى الطليعة كان تعلقه هذا جانبياً .

ويظهر من اصراره على أن يجب تطبيق العلم والتدبر على السلوك كما يطبقان على كل شىء سواه وعلى أنه قد أكد أن المعرفة أو القدرة على تعريف الفضائل هى الشىء الضرورى الوحيد . ولذلك فانه اذا كانت المعرفة لدى رجل . لزم بالضرورة أن يكون خيراً . وأنه إذا لم تكن لديه . لم يستطع أن يكون خيراً . وهذا يعنى ، كما يقول أرسطو ، أنه تجاهل العناصر غير العاقلة فى النفس ، وانه لم يستطع أن يدلى بتوضيح الحقيقة القائلة بأن الناس قد يعلمون ما هو صائب من غير أن يفعلوه ، ويمكن أن يفعلوا ما هو صائب من غير أن يكونوا قادرين على توضيحه .

هذه فكرة أوحاها تأثير سقراط المتعدد الجوانب . وإذا كانت الآراء قد تضاربت بهذا الشكل بين أتباعه على جوهر تعاليمه ، فاننا نستدل من هذا على أن تعليمه لم يكن كاملا . ولا منظماً . أو على الأقل أنه تضمن تناقضاً رئيسياً ، أو نقصاً أخذ أتباعه المختلفون يحاولون إيجاده بطرق متباينة .

وثمة عنصر فى تعاليمه يسترعى الانتباه ويعزز ذلك الذى قدمنا . ألا وهو اعترافه بجهله فهو قد أصر على احتياجنا الى المعرفة . ومع ذلك فقد اعترف أنه هو نفسه لم يكن له منها نصيب سوى معرفة أنه جاهل . وكان كل ما علمه هو مجرد الأسلوب فى معالجة المسائل الأخلاقية وقد أتى هذا الأسلوب فى أيد مختلفة بنتائج متباينة جداً . ويزيد على ذلك ان سقراط لم يكن فيلسوف مدارس . فهو لم يكتب شيئاً وإنما كان يتكلم ويسأل

ويجادل فقط . ولم يكن تأثيره فى سامعية آت من ناحية حقائق محدودة أعلنها ولكنه آت من ذلك الاسلوب الذى تكلم به ومن شخصيته وأسلوب سقراط فى الاستجواب وفى الجدل كان المصدر العام لجميع الفلسفات التى أتت من بعـده كما كانت مصدراً لجميع المحاورات السقراطية .

وفيما كتب أفلاطون وزينوفون الدليل على الطابع غير الفنى لتعاليم سقراط . وأحسن ما قيل فى ذلك هو ما فاه به الكبيادس فى محاورة افلاطون « المأدبة » (صفحة ٢٢١ من مطبوعة Everyman) وهو ما يلى :

« إذا أصغى أى فرد الى كلام سقراط ظهر له لأول وهلة أنه مضحك جداً . فهو يتكلم دائماً عن حمير السوق والنحاسين والحذائين والدباغين . وهذه هى عادته على الدوام حتى أن أى رجل غبى أو شخص قليل الملاحظة ليضحك من حديثه »

وازن ذلك بالفقرة الآتية من جورجياس ٤٩١ :

كالكليس « كيف ! أتذهب تتحدث على الدوام بنفس الاسلوب يا سقراط ؟ »

سقراط « نعم يا كالكليس . وأيضاً عن نفس الأشياء » .

كالكليس « نعم بحق الآلهة . إنك لتتحدث على الدوام عن الاسكافيين والباعة المتجولين والطباخين والأطباء . كأن هذا له علاقة بجدلنا »

كذلك فى الميمورابليا (١ فصل ٢) يجعل زينوفون كريتياس يقول لسقراط « ولكن سيكون حتماً عليك أن تمتنع عن التكلم عن أولئك الاسكافيين والحدادين . حقاً اننى لأظن أنهم قد بلوا الآن من كثرة ورودهم على لسانك »

وهنالك فقرة أخرى بهذا المعنى فى الميمورابليا (٤ فصل ٤)

« حدث أن هيبياس الاليسى فى عودته الى أثينا بعد غياب ، مر بسقراط عند ما كان يبين لبعض الناس غرابة الموضوع الآتى . وهو أن الانسان لا يعجز أن يبعث غيره ليعلمه أن يكون اسكافاً أو نجاراً أو نحاساً أو راكباً ، ولكن الحال مع العدالة ليست كذلك . فاذا أراد أن يتعلمها هو أو يجعل ابنه أو عبده يتعلمها لا يعرف أن يذهب لينال بغيته . فلما سمع هيبياس ملاحظته قال له كمن يمزح معه « ما هذا ! ألا تزال تقول نفس الاشياء التى سمعتها منك يا سقراط منذ مدة طويلة » ؟

ابراهيم عبد الحميد زكي

تقييد النسل

دعوة هدامة

للأستاذ علي نجيب

قد لايخلو عصر من العصور من وجود نفر لاغرض له الا صنع الشر وإذاعته ماأمكنه من وسائل قد يكون ظاهرها حسنا ، وقد لايعدم هذا النفر من المساعدة والتأييد والتحبيذ ، وقد يلاقي التأييد الكلى من الجميع بقدر ماله من براعة فى التحايل والتغرير والسطو على العقول . وقد يساعد على نشر الدعوة أو الدعوات ما يرجى منها الافساد العام ، فهى مقبولة حتما وفى طريق النجاح .

فالدعوات الهدامة سريعة الانتشار ومعقولة ومحبوبة لأن طبيعة أكثر الناس ميالة الى الشر وذلك لانحطاطهم الانسانى . وفى ذلك يقول نابليون بونابرت الأول بعد أن فقد عرشه وتاجه بخيانة قواده « لم يشأ الله أن أموت ؛ وليس فقدى للعرش بالسبب الذى جعل حياتى لاتطاق ، فان أعمالى الحربية تكفى للحدى ، أتدرى أى شىء أصعب على النفس من سوء الطالع ؟ أتدرى أى شىء يفطر القلب ؟ هو الانحطاط الانسانى ونكران الجميل الى حد هائل . . . وهذا هو الذى جعلنى أكره الحياة وأنفر منها »

الانحطاط الانسانى أكره نابليون العظيم على الزهد فى الحياة . الانحطاط الانسانى أسقط نابليون من عالى مجده ، وأطار من رأسه تاجه وصولجانه ، فياللشناعة ويالفظاعة .

أنا لا أقصد أن أرمى الجنس البشرى كله بالانحطاط ، معاذ الله بل فيه ناس خيرون صالحون قليلون ، وقد مهدت لك أيها القارىء الكريم بهذا الكلام حتى يكون لديك المام بان الحركات الهدامة خطيرة وخطورتها فى أنها مقبولة .

فواجب على كل مصلح محب للجنس البشرى ، أن لا يحجم عن اذاعة نصحه ما أمكن وفى ذلك يقول المثل الحكيم « أد الواجب ودع ما يكون » .

***

دعوة خطيرة ليست وليدة اليوم ، تلك دعوة نفر الى (تقييد النسل) فهى دعوة قديمة من منذ عشر سنوات .

ولقد كان على رأس الداعين لها الدكتورة مارى كارمشيل ستوبس الانجليزية .

ومما يحسن ذكره وليكون القارىء ملماً ببعض الشيء عن أصحاب الدعوة الى تقييد النسل ، هو أنى لم أجد فى مؤلفاتها غير شرح للعلاقات الزوجية بشيء مخجل مزرى بالآداب وبشكل ساحر جذاب مغرى للشباب والفتيات ، مهيج للشعور البهيمى .

وقد لاقت هذه الدعوة فى الآونه الحاضرة التأييد والتحبيذ من الكثيرين واجتمع لها فى مصر بضعة أنفار وهذا ما جعلنا نتوجس شراً يحيق بهذا الوطن التعس المسكين .

ذلك أن نشر هذه الضلالات فى الكتب والمجلات كان له الأثر السيء .

ولا شك أن الاصغاء الى هذه الرجاسات يقودنا الى نشر الفاحشة بشكل فظيع مخيف . ويكون لنا فى كل مكان سوق للفجور ومناحة للعفاف والشرف المثلوم .

وفى الواقع ان تقييد النسل سيؤدى بطبيعة الحال الى انتشار الفاحشة بين النساء عموما والفتيات خصوصا العازبات اللواتى ينغمسن فى حمأة الرزائل ،وسيجدن فى العقاقير والادوية الطبية لقييد النسل أحسن طريقة لستر عارهن .

***

إن تقييد النسل عمل اجرامى محض ومخالف لناموس الاجتماع ولاتقره الاديان .

فالداعون اليه مجرمون لايستحقون رحمة أحد ولهم فى الدار الاخيرة سوء العذاب والواجب على الحكومات أن تقابل دعوتهم بالقسوة والشدة حفظا للبشرية ومنعا لانتشار الفحش وضنا على كرامة البشرية أن تتبدل الى الحيوانية البهيمية .

فلتنتبه الحكومات الى هذا الخطر الجسيم ولتكن الحكومة المصرية أكثر يقظة وحيطة ولترقب بعينها الساهرة (الاجزخانات ومخازن الادوية والاطباء) .

هذا ما عن لنا الان كتابته وسنعود الى التفصيل والايضاح فى مقال آت ؟

على نجيب
بكالوريوس آداب

المرأة والعمل

للسيدة رشيدة محمد الحريرى

لاشك أن المرأة الانجليزية وأختها الأمريكية، تمثلان المثل الأعلى للاسترجال الحديث بين نساء الغرب. فلست تجد للنساء فى احدى العواصم الأوربية مثل برلين أو باريس أو فينا — تلك القامة المعتدلة والنظرة السديدة والمشية الثابتة التى تجدها للمرأة الانجليزية فى لندن. ويمكنك أن تلمح من الزى لمحات صغيرة لها معان كبيرة فى منحى النزعة النسائية فى انجلترا. فالمرأة الانجليزية تلبس الآن أحذية تشبه أحذية الرجال لها كعوب قصيرة، ثم هى قد تركت أو كادت تترك تلك الأقراط التى تحلى بها الآذان. والمعاطف التى تلبسها لاتختلف فى اللون عن ألوان الملابس التى يلبسها الرجال، ولكن الانجليزية تعد بالنسبة الى الامريكية متأخرة لأن الاسترجال فى الولايات المتحدة قد بلغ غايته أو كاد.

والسبب فى ذلك أن الظروف المعيشية والمنزلية تساعد المرأة هناك على الاسترجال أكثر مما تساعدها فى انجلترا.

وأعظم الأسباب التى دفعت بالمرأة الى الاسترجال فى جميع أنحاء العالم الغربى هى الحرب العظمى، فانها دفعت بالرجال الى ميادين القتال، واضطرت الحكومات الى استخدام المرأة فى الذخيرة عند ما اضطر أصحاب المصانع والمكاتب الى استخدامها بدل الذين تجندوا. ولكن الكساد الذى أعقب الحرب فى أوربا، جعل المصانع والمكاتب تستغنى عن عدد كبير من النساء المستخدمات فيها، بينما الرخاء الذى تمتعت به الولايات المتحدة عقب الحرب فتح باب الاستخدام للمرأة على مصراعيه، فأقبلت تعمل خارج المنزل يحثها على ذلك الربح المتزايد والاجور العظيمة التى تجعل المرأة المتوسطة، سواء كانت آنسة أو متزوجة، تتمتع بأوفر حظ من الرفاهية والترف.

فهذا الرخاء الذى تعيش فيه الامريكيات، هو أول الأسباب لاسترجالهن وامتيازهن على المرأة الغربية! فى الاغارة على أعمال الرجال والاستيلاء عليها. ولكن هناك أسبابا أخرى عاونتها على هذا الاستيلاء، وربما كان أهمها وفرة المخترعات التى جعلت ادارة المنزل فى الولايات المتحدة من أبسط الأمور. فهناك مدن كبيرة قد يبلغ سكانها ١٠٠ ٠٠٠

نفس وليس فى منزل واحد منها خادم . وذلك لأن ربة البيت نفسها تؤدى عمل الخادم دون أن تكد نفسها أو تستنفد وقتها ، بل هى أحياناً تؤدى هذا العمل ثم تجد الوقت الكافى لكى تؤدى عملا آخر خارج منزلها يعود عليها بمرتب شهر جزيل . فالمنزل فى الولايات المتحدة يحتوى على تليفون يمكن ربة البيت من أن تشترى أو توصى به على كل ما تحتاج اليه فيحمل الى باب المنزل . «فالبقال» يحمل اليها حاجتها من لحم أو خضروات أو جبن أو غير ذلك ، والغسال يحضر كل أسبوع لكى يأخذ القماش الذى يراد غسله . أما الكنس فيمكنها هى نفسها أن تكنس منزلها فى بضع دقائق بمكنسة كهربائية تمص الغبار . أما الطبخ فيؤدى بالغاز أو بالكهرباء أيضاً . والمرأة التى هذا شأنها يمكنها أن تترك منزلها ست ساعات كل يوم ، لكى تعمل فى أحد المكاتب ، ولا عبرة فى أن تكون آنسة أو زوجة .

وقد يكون للزوجة أولاد ولكنهم لا يعوقونها عن العمل خارج المنزل ، الا فى الأشهر الأولى . ففى الولايات المتحدة الآن مدارس تسمى (مدارس الرضاعة) يمكن للأم أن تترك طفلها فيها ، فاذا عادت من عملها أخذته معها الى البيت .

ومما يساعد المرأة فى الولايات المتحدة على الدخول فى المصانع والمكاتب واتخاذ الاعمال الحرة ، أن الرجال لا يخشونها لأن الرخاء عام ، فدخولها لا يبرر طرد الرجال من أعمالهم كما هى الحال تقريباً فى أوربا وانجلترا ، بل لغير زدياة العمل والثروة . ثم إن الرأى العام لا يعارض فى اشتغال المرأة المتزوجة بالاعمال الحرة ، بينا هذه المعارضة قوية فى انجلترا ، إذ لا تشتغل هناك من المتزوجات سوى الفقيرات ، وهذا الرأى العام نفسه قد مهد الطريق للمرأة الامريكية بما فتحه لها من أبواب الكليات والجامعات ، حيث تتعلم على قدم المساواة مع الشبان الذكور ، وهذا التعليم يؤهلها لأن تتساوى وإياهم فى الأعمال الحرة .

وقد قصت الآنسة لوكهارت ، وهى فتاة انجليزية زارت الولايات المتحدة ، قصة تدل على نظر المرأة الأمريكية للرجل وتسامح هذا معها ، بل تقديره لها . فقد كانت تخطب طائفة من السيدات والأوانس فى إحدى المدن الامريكية ، فأبدت دهشتها لاستطاعة الامريكيات إدارة بيوتهن مع اتخاذهن أعمالا أخرى خارجها ، قالت إنها تعتقد أن هذه الاعمال تدعو الى اهمال البيت ، فوقفت احدى السيدات وسألت الخطيبة : ما الذى يمنع الرجل من أن

يساعد زوجته فى تدبير المنزل ، ما دام كلاهما يعملان خارجه ؟ وقد وجدت استحساناً وموافقة من جميع الحاضرات مع أن مثل هـذا السؤال كان يضحك جمهورا من السيدات فى إحدى العواصم الاوربية .

وقد قلنا إن انجلترا تسبق سائر الاقطار الاوربية فى تقدم المرأة ، وإن كان هذا التقدم دون مابلغته المرأة فى الولايات المتحدة . والذى يلاحظ أن المرأة الانجليزية تسبق نساء العالم كله فى السياسة والاهتمام بالحركات الحربية والاصلاح الاجتماعى . وربما كان السبب فى ذلك تلك النزعة الجدية التى تنزع اليها الصحف الانجليزية وتمتاز بها على الصحف الامريكية ، فهذه النزعة تربى الجمهور الانجليزى نساءه ورجاله .

ولكن المرأة الانجليزية تلقى المشاق فى مقاومة الرأى العام الذى لا يسلم لها بالمساواة . فهناك مثلا نظام التعليم المزدوج حيث يتعلم الذكور والاناث فى المدارس الابتدائية وهو نظام لولا أنه يتفق والاقتصاد لما رضى به الانجليز ؛ ولكنهم يرضون به الآن لأن هناك جهات لايمكن فيها مع الاقتصاد تعليم الذكور والاناث كل على حدة ، لان القرية أو المدينة من القلة بحيث لاتكفى لايجاد مدرسة مستقلة لكل من الجنسين . أما التعليم العالى فالمرأة تحرم منه فى الجامعات الانجليزية فيما يخص الحقوق والطب ، فى حين أن جميع الجامعات فى الولايات المتحدة لاتعارض فى تعليم الاناث والذكور ماعدا جامعة هارفرد التى ترفض كل تعليم الطب للنساء .

ومما يدل أيضاً على ما ينطوى عليه المعلمون فى انجلترا نحو المرأة ، أن المؤتمر الذى عقد منهم منذ عامين أقر جملة قرارات منها : استهجان التعليم المزدوج ، ومنع ترقية المعلمة الى مركز الرياسة اذا كان بين مرءوسيها رجل . والتعليم هو العمل الذى تكاد تحتكره المرأة فى المدارس الابتدائية فى أوربا وأمريكا ومع ذلك فان المعلم يمتاز عليها فى انجلترا بزيادة المرتب ، ولو تساوى الاثنان فى نوع العمل وكميته : ثم لايجوز للمرأة الانجليزية أن تبقى فى التعليم اذا تزوجت ، لأن عليها أن تختار بين الزواج والتعليم . والعالم هو الان من صنع الرجال وحدهم دون النساء . ولكن المرأة قد شرعت تخرج من المنزل وتستولى على الادارة والصناعة ، أى انها قد أخذت تشترك فى طبع المدنية الحديثة بطابعها . وما نراه الان فى الولايات المتحدة يرجح أننا سنراه قريباً فى اوربا . فهل يصل يوماً الى الشرق ويعم العالم كله ؟

رشيدة محمد الحريرى
حرم أحمد عزت سلامه

طبيعة النفس العربية

بين المزاج العقلي السامي والمزاج الآرى

للاستاذ صادق برسوم مطر

ليسانسيه فى الفلسفة

« ا » مقدمة : ظهور فكرة مقارنة خصائص النفس السامية بخصائص النفس الآرية بين مستشرق القرن التاسع عشر — من هم الساميون والآريون ؟

« ب » رأى ارنست رينان : الدور الذى لعبه الساميون فى التاريخ هو دور دينى أكثر منه سياسى أو علمى — التوحيد هو أهم خصائص الساميين وهو يفسر كل صفاتهم .

— ١ —

فى القرن التاسع عشر اتجهت الى الشرق أنظار الكثيرين من أصحاب العلم فى أوربا فأقبلوا على البحث فى تاريخه ، وتوفروا على درس ماتمخضت عنه مدنياته من دين وفلسفة ، وعلم وفن ، ولغة وأدب ، فنشطت الدراسات الشرقية فى هذا القرن ، وأصاب الدراسات العربية والاسلامية من ذلك خير كثير .

وكان كثير من المستشرقين المشتغلين بشؤون الشرق العربى يعتقدون أن مابين أيديهم من الفلسفة والفن واللغة والآداب العربية ، هو من آثار العقل العربى ، أو على الأقل للعقل العربى أثر فيه ، لذلك تعرضوا للبحث فى طبيعة العقل العربى والنفس العربية ، وللبحث فى طبيعة العقل العربى لجأوا الى المقارنة بين الجنس السامى الذى يعتبر العرب أعظم ممثليه ، وبين الجنس الآرى الذى يمثله الهنود والأوربيون ، وكان من وجوه هذه المقارنة ، مقارنة المزاج العقلى السامى بالمزاج العقلى الآرى .

وقد ظهرت مسألة السامية والآرية أول الأمر ، بين العلماء الباحثين فى أصل اللغات ومقارنتها ؛ فهؤلاء وإن اختلفوا فيما بينهم اختلافات جزئية ، الا أنهم كانوا متفقين على وجود مجموعة لغات تسمى بالمجموعة السامية ، ومجموعة أخرى تسمى بالمجموعة الآرية ثم نشأت بعد ذلك عند بعضهم فكرة أن هاتين المجموعتين من اللغات تقابلهما مجموعتان من الأجناس البشرية ، هما مجموعة الشعوب السامية ومجموعة الشعوب الآرية ، وأن

لكل من هذين الجنسين خصائصه ونفسيته ومزاجه العقلى الخاص .

وهم فى هذه المقابلة لا يقصدون بالساميين الشعوب التى ورد ذكرها فى التوراة على أنها من أبناء سام بن نوح ، بل يقصدون الشعوب التى تكلمت العربى والسريانى والعبرى وبعض اللهجات القريبة من هذه . أما الآريون فأصل نشأتهم عند هضبة «بامير» فى آسيا ثم انتشروا فى الهند وفارس وأرمنيا وآسيا الصغرى وأوربا وهذا هو مايسمى بالرحلة الآرية .

وسأعرض ملخصاً لآراء العلماء الذين تكلموا فى مقارنة المزاج السامى بالمزاج الآرى وسأبدأ برأى « ارنست رينان » المؤرخ واللغوى والفيلسوف والاديب الفرنسى المشهور (١٨٢٣—١٨٩٢) .

يقول « ارنست رينان » فى الفصل الأول من كتابه المشهور فى تاريخ اللغات السامية : إن مجموعة اللغات السامية يجب أن ينظر اليها الآن باعتبار أنها تنطبق على قسم من أقسام الجنس الانسانى ، والحقيقة أن التاريخ يبين لنا أن الشعوب التى تكلمت هذه اللغات لها طابع خاص وتتسم بسمات خاصة . والتاريخ القديم يظهر لنا أنهم قد لعبوا دوراً هاماً فى الغزوات الكبرى التى حدثت فى آسيا ، ولكن تأثيرهم من الوجهة السياسية أقل بكثير من تأثيرهم من الوجهة الدينية لأن حضارة بابل بكثير من خصائصها الجوهرية لا ترجع الى أقوام من هذا الجنس : وقبل الامبراطورية العربية التى كان السبب فى وجودها دافع حماسى قوى من الدين الجديد ، قبل هذه الامبراطورية لا نكاد نرى فى التاريخ آثاراً لأية أمبراطورية سامية كبرى ، ولكن تقصيرهم فى هذه الناحية قد عوضوه فى الناحية الأدبية ويمكننا أن ننسب اليهم بدون أية مبالغة ، جزءاً من الآثار العقلية للجنس الانسانى .

والواقع أن اللفظين اللذين استعملا ولا يزال استعمالهما جارياً الى الآن ، للدلالة على سير العقل نحو الحقيقة ، وهما علم وفلسفة ، قد كانا غريبين عنهما تقريباً . فالبحث التفكيرى المستقل الدقيق العميق ، أو بعبارة أخرى التفكير الفلسفى للبحث عن الحقيقة ، يبدو أنه كان وقفاً على الجنس المسمى بالهندى الأوربى (الآرى) الذى يمتد من الهند الى أقصى الغرب وإلى أقصى الشمال ، والذى كان يبحث منذ أقدم العصور الى الان ، لتفسير الله والانسان والعالم تفسيراً عقلياً ، والذى ترك وراءه فى كل مراحل تاريخه آثاراً فلسفية

خاضعة لنواميس تطور منطقى ، أما الساميون فانهم بدون تفكير أو تدليل توصلوا الى أصفى وأنقى صورة دينية عرفها التاريخ .

فالمدرسه الفلسفية (L'école philosophique) موطنها اليونان والهند ، فى وسط قوم طلعة ، يهتمون كثيراً بمعرفة أسرار الأشياء . أما المزامير والأناشيد والكتب المنزلة والحكم الرمزية أو الموضوعة فى شكل ألغاز فهى من نصيب الجنس السامى .

وفى الواقع ألسنا نلاحظ أن الديانات الثلاث التى كان لها فى تاريخ المدينة أعظم الأثر ، والتى ترتبط ببعضها ارتباطاً شديداً لدرجة أنها تبدو كثلاث غصون لجذع واحد ، أو كثلاث طرق فى التعبير عن فكرة واحدة — ألسنا نلاحظ أن هذه الديانات الثلاث قد نشأت بين أقوام من الساميين ؟

ثم ينتقل « رينان » الى القول بأن الجنس السامى هو أدنى من الجنس الآرى اذا قورن به ، فهو — أى الجنس السامى — ليست له هذه الروحانية السامية التى عرفها الهنود والألمان فقط ، وليس له هذا الاحساس بالجمال الذى بلغ حد الكمال عند اليونان ، وليست له هذه الحساسية الرقيقة العميقة التى هى الصفة الغالبة عند الكلتيين (سكان فرنسا وجزء من البلجيك) — وإنما الساميون بديهتهم حاضرة ولكنها محدودة ، وهم يفهمون الوحدة بشكل غريب ، فالتوحيد هو أهم خصائصهم وهو الذى يلخص ويفسر جميع صفاتهم : ففخر الساميين هو فى كونهم أول من عرف مبدأ الالوهية وعنهم أخذ العالم الديانات . والصحراء هى ملهمة الوحدانية ومبعث التوحيد لمنظرها الواحد المتشابه ، الذى يلهم الانسان أيضاً فكرة اللانهائى . وهذا هو السبب فى أن بلاد العرب كانت دائماً الطريق الوحدانية المتطرفة وإذن فمن الخطأ القول بأن محمداً هو موجد التوحيد عند العرب فمبدأ الله كانت دائماً قوام الدين عندهم ، والاصلاح الدينى عند الساميين كان دائماً عبارة عن الرجوع الى دين ابراهيم . وإذن فالعبادة السامية الحقة لم تتعد مطلقاً دين ابراهيم البسيط وهو دين خالى من التعقيد ، وليس له لاهوت دقيق معقد . وحركة الوهابيين فى بلاد العرب هى تجديد لفكرة العرب القديمة ، وهى تكاد توجد إسلاماً جديداً بعملها على تبسيطه ، وتخليص العقيدة من كل العناصر الغريبة التى دخلت فيها وأبعدتها عن سذاجتها الأولى .

وميل الساميين الى التوحيد والبساطة يظهر لنا السبب فى أنهم لم يكونوا من أصحاب الميثولوجيا مثل الآريين .

طبيعة النفس العربية

ومن آثار التوحيد عند الساميين ، التعصب . فعدم وجود التسامح الدينى عند الساميين هو نتيجة ضرورية لمذهبهم فى التوحيد . أما الآريون ، فانهم قبل اهتدائهم لأفكار الساميين ، لم يعتبروا أديانهم فى أى وقت من الأوقات كحقائق مطلقة ، بل كنوع من الميراث فى العائلة أو القبيلة ، وهذا هو السبب فى أننا نجد عندهم دون الآخرين التسامح وحرية الفكر وروح الاختبار والبحث الشخصى . ومسألة النبوات والوحى هى من المسائل التى تخص الساميين ، حتى أن القرآن لم يجد تقسيما للشعوب غير تقسيمهم الى كتابيين وغير كتابيين .

والساميون تنقصهم الدهشة التى تدعو الى التساؤل والتفكير ، والتى تدفع الى البحث عن الحقيقة ، لأن اعتقادهم فى قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشىء ، فاذا رأوا شيئاً عجيباً قالوا « ربنا قادر على كل شىء » كما أنهم فى حالة الشك يختمون رأيهم بقولهم « الله أعلم » فاذا اعترض على ذلك بظهور حركة علمية فلسفية عند العرب فى عصر العباسيين ، فيجب أن يكون الجواب على ذلك أنه من الخطأ وسوء الاستعمال أن نسمى فلسفة منقولة عن اليونان بالفلسفة العربية ، مع أنه لم يظهر لها أى مبادئ أومقدمات فى شبه جزيرة العرب مكتوبة بالعربية وهذا هو كل ما فى الأمر ، كما أنها لم تزدهر إلا فى الجهات البعيدة عن بلاد العرب مثل اسبانيا : ومراكش وسمرقند ، وكان معظم القائمين بها من غير الساميين وكثرتهم من الفرس .

والتوحيد له تأثير أيضاً فى الشعر العربى ، لان الشعر العربى يعوزه الاختلاف والتنوع فموضوعات الشعر أى أغراضه محدودة قليلة العدد جداً عند الساميين . والواقع أن هذا الجنس لم يعرف إلا نوعين من الشعر هما الشعر المجازى عند اليهود والشعر الشخصى الغنائى الذى تمثله القصيدة عند العرب . وهذه أنواع من الشعر القصير يعبر عن احساس شخصى وعن حالة نفسية خاصة ، والابطال فى هذا الشعر هم نفس منشئيه . وهذه الصفة الشخصية الى الغاية التى تجدها فى الشعر العربى واليهودى ترجع الى خاصية أخرى من خصائص النفس

السامية وهى انعدام المخيلة الخالقة عندهم وتبعاً لذلك عدم القدرة على الاختراع . فالشاعر السامى لا يقـدم على تناول موضوع غير شخصه ، ومن هنا لا نجد عندهم أثراً للشعر القصصى أو التمثيلى .

والساميون ينقصهم الاحساس بالتنويع ، فالتشريع السامى البحت لم يعرف مطلقاً الا نوعاً واحـداً من القصاص هو الموت . والتشابه الممل فى التاريخ الاسلامى قد استرعى أنظار المشتغلين بشؤون الشرق .

وملكة الضحك معدومة عند الساميين ، حتى أن الفرنسيين وهم شعب ضحوك ينظر اليهم عرب الجزائر باستغراب ، ويعتبرون ذلك منهم موضع دهشة بالغة .

والساميون أيضاً عندهم نقص تام فى كثير من الفنون الجميلة مثل صناعة التماثيل والتصوير ، وقد حال دون وجودها عندهم تحريم الدين من جهة وانعدام الخيال والاختراع من جهة أخرى وهما شرطان لازمان لهذين الفنين . والموسيقى وهى الفن الشخصى الى الغاية هى الفن الوحيد الذى عرفه الساميون .

وصفة البساطة تميز الجنس السامى من الوجهة المدنية والسياسية أيضاً ، فهذا الجنس لم يعرف المدنيـة مطلقاً بالمعنى الذى نفهمه من هذا اللفظ ، والمجتمع السامى الحقيقى هو مجتمع الخيمة والقبيلة ، فليس عنـدهم نظم سياسية أو قضائية ، ومسائل الارستقراطية والديمقراطيه ونظام الاقطاعات التى تتضمن كل أسرار تاريخ الاريين . لا معنى لها عند الساميين : أما من جهة السلطة المطلقة . فان الساميين لاينسبونها ولا يسلمون بها الا لله . واليهود لم يصلوا الى حـكم مطلق ومدنية مستقرة الا فى عصر متأخر . وكانوا فى ذلك مقلدين لغيرهم لا مبتدعين ، والساميون أدنى من غيرهم فى شؤون الحرب والقتال ، لأنه يعوزهم النظام والخضوع للرؤساء ، وهما صفتان لازمتان لتكوين الجيوش . ولتعويض هذا النقص كانوا كثيراً مايلجأوون الى استخدام الجنود المرتزقة . هكذا صنع داود والفينيقيون والقرطاجنيون والخلفاء الاسلاميون . وقد كان هذا هو الجرح المميت لـكل الحكومات السامية . وضعف الخلافة العباسية ثم زوالها لم يكن له سبب غير هذا .

والاخلاق نفسها ينظر اليها الساميون نظرة تخالف نظرتنا اليها . فالسامى لا يعرف مطلقاً

[البقية فى الصفحة ٥٨٦]

كيف يدفع الشرق تهمة الغرب

للاستاذ محمد المكى الناصرى

عضو البعثة المغربية



بين الشرق والغرب صراع عنيف لا يفتر، وخلاف قديم لا يزال يتجدد فى كل حين ومنذ اتصل الغرب بالشرق اتصال القوى بالضعيف والغالب بالمغلوب، أسرف فى خصومته وأصبح يعلن بمرأى ومسمع من الانسانية كلها تهماً خطيرة أقل ما يقال عنها إنها احتقار بليغ للعناصر الشرقية، وازدراء شديد بأبناء الشرق .

لقد اتهم الغرب الشرقيين فى إرادتهم وأخلاقهم وسياستهم، وادعى أنهم شعوب «سفلى» يجب أن تكون مقودة لا قائدة، ومستعبدة لا سيدة، ولكن الشرق أقام لرد هذه التهمة الباطلة حماة هم خير أبنائه، فجاهدوا الغرب وجادلوه بالسيف تارة وبالقلم أخرى، ولا يزال الغرب سادراً فى غلوائه، مصراً على تهمته، ولا يزال الشرق وزعماؤه، يدافعون عن كرامته، وما هذه الزعامات التى نشأت، والأحزاب التى قامت، والثورات التى حدثت ولا تزال تحدث الامظاهر متعددة، لفكرة واحدة وغرض واحد، هو دفاع الشرق ضد تهمة الغرب .

لم يكتف الغرب بهذه التهمة الوحيدة، فاتهم الشرقيين بتهمة أخرى هى أدهى وأمر، اتهمهم أيضاً فى عقليتهم وأمزجتهم وثقافتهم وتاريخهم الفكرى العظيم، فكانت تهمته هذه أخطر من الأولى وأقبح أثراً فى نفوس الاجيال الشرقية، والغرب حكيم حتى فى

اتهاماته ! فالتهمة الأولى وجهها باسم السياسة ورجال الاستعمار ، لأنها من اختصاصات السياسة والبرلمانات ، والتهمة الثـانية وجهها باسم العلم والحقيقة العلمية ، لأنها من اختصاصات العلم والجامعات ، والحق أقول إن الغربيين لم يفلحوا فى شيء كما أفلحوا فى هذه التهمة . فقـد استطاعوا أن يضموا إلى جانبهم أنصاراً من الشرقيين غير قليلين ، وظلت تهمتهم تجرى على الألسنة مدة غير قصيرة ، كأنها حكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، حتى قامت ثورة فكرية شطرت المثقفين من أبناء الشرق شطرين : (١) دعاة الى الاندماج فى الغرب وتقديس الثقافة الغربية ، وهؤلاء يشكون فى قيمة العقلية الشرقية، (٢) وآخرون يدعون الى الاحتفاظ للشرق بشخصيته وثقافته ، وهؤلاء يؤمنون بقيمته العقلية شديد الايمان .

والذى ساعد على انتشار هذه التهمة بين الشرقيين فيما أرى ، هو أن الغرب كثيراً ما بسط يده فى العصر الأخير على المعاهد الشرقية ، فكان هو الذى يضع سياستها التعليمية ويشرع مناهجها أو يشرف على تشريعها ، ثم يختار لتطبيقها ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، أكثر أبنائه تحمسا للمناهج الاستعمارية ، وأشدهم اغراقاً فى « الشعوبية الغربية » ومن هذه السبيل استطاع أن يكون له بين مثقفيه ، أبواق تذيع بين الشرقيين ما بين حين وحين تهم الغرب الخطيرة ، فى صورة القضايا العلمية النزيهة ، وكما كونت مناهج الغرب أنصاراً للاستعمار خطيرين من بين الشرقيين ، فقد أخرجت منهم خصوماً لثقافة الشرق ألداء ، وهكذا ظلت هذه التهمة تنتشر بطريق الدعاية والعدوى والتقليد ، حتى أصبحت عقيدة راسخة فى كثير من النفوس ، ولولا أنها القيت الى الشرقيين من طريق الكتب والدراسات باسم العلماء والباحثين ، والشرق لا يزال مؤمناً بالغرب من الوجهة العلمية — لما كان لهذه التهمة أثر فى عقول الشرقيين ، ولتناثرت فى الفضاء دون أن يشعر بها أحد من الناس .

ونحن أبناء « الشرق الاسلامى » اذا عالجنا الرد على هذه التهمة وهممنا بمقاومتها والدعوة الى ابطالها، فان عملنا سيكون مقصوراً على الجهة التى تخصنا ، والذى يعنينا أمره بالذات إنما هو الدفاع عن الثقافة الاسلامية ثقافة اسلافنا ، وتراث أجدادنا ، هذه الثقافة التى وجه اليها من الطعن والاتهام، ما لم يوجه إلى ثقافة أخرى ، وأولئك الاسلاف الذين ظلمهم

التاريخ ظلماً لم يشهده التاريخ نفسه ، ولعل خصومتنا — فى هذا الباب — لا تكون للغربيين جميعا على قدم التساوى ، وانما نتوجه بشكل قوى الى طائفة تتصل بهذا الموضوع اتصالا وثيقا ، وهى طائفة « المستشرقين » فالمستشرقون هم « عيون » الغرب التى ينظر منها الى الشرق ، وهم « رسامون مثاليون » يستطيعون تحسين القبيح وتقبيح الحسن ، ويعرضون صور الناس والاشياء كما يشاءون ، و بالشكل الذى يريدون ، فالمسئولية فيما يوجه الى الثقافة الاسلامية من تهم باطلة ، تقع على عاتق هذه الطائفة قبل غيرها من طوائف الغرب ، وانه ليؤسفنا جدا أن تضع هذه الطائفة نفسها تحت ارادة السياسة ومطامح الاستعمار ، وأن تجعل من المعرفة والعلم ، مهنة حقيرة لخدمة النزعات الفاسدة وترضية الأهواء الجامحة .

ولكن مالنا نغفل عن الحقيقة الواقعة ، وتاريخ الاستشراق نفسه مقترن بتاريخ سعى الغرب الى استعمار شعوب الشرق، وطائفة المستشرقين انما نمت وقويت وأصبح لها وجود محترم فى الاوساط الغربية ، عند مااشتد الصراع بين الشرق والغرب ، واشتد نهم الغربيين ، فارادوا أن يوسعوا معارفهم عن الشرقيين ليمكنوا أقدامهم فى بلاد الشرق وتكون سلطتهم عليه سلطة شاملة خالدة ، ومالنا لانستفيد من ملاحظاتنا ونحن نرى صحف باريس تعلن عن محاضرات المستشرقين الفرنسيين وأبحاثهم ، على أنها « أبحاث علمية لخدمة الاستعمار » تلقى فى السوربون ، وكوليج دى فرانس ، والمدرسة الاستعمارية ، ومدرسة اللغات الشرقية ، ونحن نسمع من طرق مختلفة صلة هؤلاء المستشرقين بوزارة الخارجية ووزارة المستعمرات ، وأخبار البعثات السياسية المختلفة التى يقوم بها المستشرقون فى بلاد الشرق ، والتى يمنعون لأجلها أحياناً من دخول بعض البلاد الشرقية ؟ ؟

لقد لاح الصبح لذى عينين ، وأصبح الغرض الأساسى من الاستشراق مكشوفا ومهما اتخذ المستشرقون لوجوههم من الأصباغ والالوان المستعارة ، فلن يستطيعوا إخفاء لونهم الطبيعى ، ولن ينكروا فى يوم من الأيام خدماتهم للاستعمار الغربى وسوء استغلالهم لثقة الشرقيين ، ولوكان المثقفون من أبناء الشرق جميعاً ، لايتناسون صلة هؤلاء العلماء الموظفين ، بحكوماتهم وأوطانهم ومطامح شعوبهم ، ولا يتجاهلون الميول الشخصية التى يعز على أولئك العلماء ، التخلص منها — ماداموا

أنا.ى ذوى وهم ، وخيـال ، وعاطفة ، ووجدان ، وعقائد مقدسة ، وتقـاليد موروثة لفقدوا ثقتهم بطائفة المستشرقين منذ زمن طويل ، ولمـا غفلوا فى أى وقت عن ظروف التهمة التى وجهت إلى الثقافة الاسلامية ورجالها ، ولاعن شخصيات المتهمين الذين وجهوا هذه التهمة باسم العلم والحقيقة ! ولو نظر وا — على ضوء هذه الفكرة — إلى مجموعة أبحاث المستشرقين التى كتبوها عن الثقافة الاسلامية ، وعقلية المسلمين ، ومفكرى الاسلام مثلا ، لاستخرجوا من ثنايا أبحاثهم براهين عديدة ، تشرح لهم كيف يندفع هؤلاء القوم وراء الهوى والغرض ، ليثبتوا قضية من القضايا على أساس تجاهل الحقيقة الواقعة ، والتعسف البغيض ، وسوء التقدير ؛ ونحن لا ننكر أن بين المستشرقين فريقاً يميـل إلى الاخلاص والاعتدال بقدر المستطاع ، وعلى رأسهم بعض أساتذتنا المحترمين ، فاننا نقدر اعتدال هذا الفريق فى أبحاثه ومحاولته للانصاف والعدل ، ولـكن صناعة الفقه تعلمنا أن النادر لاحكم له ، والحـكم للغالب . . . وإذا كنا نأسف هنا لشىء فاننا نعلق أسفنـا على أولئك النفر من أبناء الشرق ، الذين لا يزالون ينخدعون بما يحمله المستشرقون من ألقاب علمية ، وما يستعملونه فى أبحاثهم من مناهج عصرية ، فيقتنعوا بنتائجهم ، ويؤمنوا بكافة أنظارهم ، وينصبوا من أنفسهم دعاة لتلك الانظار المدخولة ، والأفكار المعلولة ، راضين بذلك أن تكون كلمة المستشرقين هى القول الفصل فى ثقافتنـا ، والحـكم النهائى فى تراث أجدادنا[١] ؟؟

نعم : يسرنا أن يكون إلى جانب هؤلاء النفر — وعددهم يقل يوما فيوما — طائفة أخرى من أبناء الشرق رزقت من طهارة الوجدان ، واعتدال المزاج ورزانة العلم ، وعدالة الحـكم ، ما جعلها تنظر إلى الثقافة الأسلامية نظرة جديدة ، غير النظرة الاستعمارية ، « نظرة المستشرقين وأنصارهم من الشرقيين » واعتقدت عن خبرة ودليل ، أنه لا يكشف عن وجه الثقافة الأسـلامية إلا أبنـاء الشرق المخلصون ، وأنه لا يستطيع أن يفهم هذه الثقافة ويقدرها أحسن تقدير إلا أبناء الشرق الذين هم ورثة هذه الثقافة « فأهل مكة أدرى

(١) المسيو « أتيين دينيه » رسام عبقرى من الفنانين الفرنسيين المشاهير وذوى الاطلاع الواسع اعتنق الاسلام بعد اقامته الطويلة فى الجزائر ، وبعد ما حج البيت الحرام ، كتب كتاباً فى « السيرة النبوية » عقد فيه فصلا ، بهما يعرض فيه معلوماته الخاصة ، عن « الاستشراق الفرنسى » و « المستشرقين الفرنسيين » وهى كلها متفقة مع آرائنا ودلائل جديدة تساعد نظرياتنا .

بشعابها » وأنه لايجمل بنا أن ننتظر من قوم هم خصومنا فى الحياة ، أن يرفعوا تيجان الفخر على رءوسنا ورءوس أجدادنا ، أو يحكموا على عقليتنا وثقافتنا حكماً عادلا ، لا غضاضة فيه ولاعدوان ، « فتى رضى الناس أن يكون الخصم هو الحكم ؟ »

إلا أن هذه الطائفة النزيهة لا تزال مبددة الشمل ، وليست بينها علاقات منظمة حتى الآن ، وليس لها عمل مشترك تتعاون عليه لخدمة هذا الغرض السامى ، وكل ما هنالك أن لها ميولا مشتركة ، تجعلها متحدة فى السعى إلى إنصاف الشرق الاسلامى وثقافته ، ودفع عدوان الغربيين و «المستغربين » وأنا أعرف من هذه الطائفة أفراداً من الكهول والشبان يعملون على انفراد ، فى الشرق والغرب ، ومن بينهم عدد غير قليل من شباب الشرق ، عرفتهم فى باريس ، يجتهد كل منهم أن تكون « أطروحته » فى الدكتوراه خادمة لهذا الغرض « غرض تعريف الغرب بالشرق من طريق الشرقيين أنفسهم ، وتصحيح أغلاط المستشرقين أو نقد أهوائهم » وفى مصر الآن أساتذة كبار ، يقضون أنفس أوقاتهم فى تحضير موضوعات من هذا النوع ، وهم يشتغلون فيها بعناية ، ونشاط ، ولذة ، تساعدهم على إنتاج خصب ، وابحاث موفقة ، سيكون لها أثرها فى عالم العلم ، ولهؤلاء الأساتذة أثر كبير فى توجيه تلامذتهم هذه الوجهة نفسها ، وفى سريان هذا الروح من تلامذتهم إلى طائفة كبيرة من المتعلمين ، تقوى وتنمو على مر الايام ، فهم أساتذة موفقون فى اتجاهاتهم موفقون فى دعاياتهم ، ولا يبالغ من يقول إنهم ينفخون فى طلبتهم روح النقد قبل كل شىء ويحملونهم على العناية فى كل موضوع بتبيين الزائف من الصحيح ، والسقيم من السليم ، ويوحون إليهم أن لايثقوا بالالقاب العلمية ثقة عمياء ، ويحببون اليهم أن يكونوا حراساً للثقافة الاسلامية ، وأبراراً بتاريخ أسلافنا المفكرين .

هذه نزعة لاشك أنها جديدة فى الشرق الاسلامى ، تأخر زمن ظهورها بعد ظهور كثير من النزعات الغربية الشاذة ، ولكنها فيما اعتقد هى النزعة التى سيكتب لها الانتصار على جميع النزعات الاخرى ، فهى نزعة طبيعية قامت على أساس العلم والاخلاص والحقيقة الواقعة ، وجميع الظروف الحاضرة تساعدها على الانتشار وتضمن لها النجاح والتوفيق ، لاسيما وتيارها الآن سار بين جمهرة عدد كبير من المفكرين المشهورين والكتاب المحترمين ، وهم يدينون بها من أعماق نفوسهم ، ويخلصون لها ولدعاتها شديد الاخلاص .

لكننى أرى أن العمل لخدمة هذه النزعة الرشيدة يجب أن يدخل فى دور التنظيم ، وأن توجه اليه جهود خاصة جديرة بالاحترام ، فالثقافة الاسلامية فى حاجة شديدة الى من يرفع عن وجهها النقاب ، ويقدمها للانسانية كلها شرقيها وغربيها ، فيعرف شباب الشرق ورجال الغرب مالهذه الثقافة من خصائص ممتازة ، تستحق كل اعجاب وتقدير ، وهذه المهمة ليست بالمهمة السهلة القريبة المنال ، بل يعوزها جهود كثيرة ، وأعمال عظيمة ، على رأسها نشر مصادر هذه الثقافة أولا ، والبحث فيها والكتابة عنها ثانياً ، وتدريس تاريخها وموادها فى جامعات الشرق ثالثا ·

وكلمتنا المقبلة . سنخصصها لشرح هذه النقط الثلاث ، شرحا وافيا ؟

محمد المكى الناصرى

طبيعة النفس العربية

(تتمة المنشور فى صفحة ٥٨٠)

أن عليه واجبات الا لنفسه . واذا طلبت اليه أن يحافظ على كلمته ويبر بوعده وأن يقيم العدل بلا تحيز فانما تطلب اليه شيئاً مستحيلا ، فالأنانية تتمثل فيهم بأجلى مظاهرها .

هذا هو رأى « رينـان » وهو مترجم فى بعض المواضع وملخص فى مواضع أخرى و« رينان » هو أشهر من كتب فى مقارنة خصائص النفس السامية بخصائص النفس الآرية وعنه أخذ ، وبه تأثر ، كثير من الباحثين فى الفلسفة الاسلامية والمشتغلين بالدراسات العربية ، وانما تأثروا به لوثوقهم منه ، وهم يثقفون به لأنه فى نظرهم قد كتب عن خبرة . وهم يعتقدون أنه كتب عن خبرة ، لأنه درس اللغات السامية وأتقنها ، وزار بنفسه البلاد الشرقية ، وكتب تاريخاً عاماً فى مقارنة اللغات السامية ؟

(للبحث بقية) صادق برسوم مطر

« المعرفة » يسوءنا أن نلاحظ ــ مع الأسف الشديد ــ حدة الأستاذ صادق برسوم مطر فى أسلوبه ، وتطرفه فى تعريبه لعبارات « رينان » الذى لم تعد له المنزلة التى كانت له من ٥٠ سنة . على أنا نشرنا ما نشرنا ، احتراما لحرية الرأى ، وتقديسا لحرمة الفكر ، ولنثبت أنا مستعدون ، لنشر كل رأى ، وإن عارض آراءنا ، فاذا انتهى الأستاذ من بحثه ، كان لنا الحق فى ابداء ملاحظاتنا على « رينان » نفسه ؟

القلب المحطم

للكاتب الامريكى « واشنجتون إرفنج »
تعريب الأستاذ
حسن شريف الرشيدى

لا أدرى لماذا تتجه عينى دائما إلى هذا الكاتب القدير ، ولا أدرى لماذا أغرم بمطالعة قطعه الفنية البديعة ، ولماذا أؤثر أن أنقل عنه إلى العربية أكثر من أى كاتب آخر ؟ فقد نقلت عنه إلى العربية فى الجزء الأول من هـذه المجلة قطعة « الزوجة » كما نقلها كثيرون أيضاً . وأعتقد أننا مهما أجهدنا أنفسنا فى النقل ، فلا يمكننا أن نصل الى مايريده الكاتب . فان دقة وصفه للحوادث ، وقوة ملاحظته للمناظر والأشخاص ، وتحليله المتقن للخلق الانسانى ، وتصويره الدقيق للعواطف مع غزارة الألفاظ التى يستعملها فى الوصف والتى قلما يفرق بين معناها الكاتب العربى — كل ذلك يجعل النقل من الصعوبة بمكان ومع ذلك فاننى أنقل له اليوم هذه القطعة بأقصى مجهود أبذله ، وعسى أن أكون قد وفقت ولو لدرجة ما — إلى غرض الكاتب .

يقول إرفنج : تعودنا دائما أن نرى الذين يحيون حياة المرح والاستهتار ويمضون أوقاتهم بين متع الحيـاة المختلفة — يسخرون من كل قصة حب — ويعتقدون أن العاطفة الخيالية إن هى الا من مبتكرات قرائح الشعراء والروائيين . ولكن ما لاحظته فى طبائع الانسان جعلنى أعتقد غير ذلك . فقد ثبت لى من ملاحظاتى أنه مهما تبلد الاحساس السطحى باعباء الحياة ، أو مهما أرغمت التقاليد الاجتماعية الانسان على الابتسام ، فلا تزال هناك نار كامنة بين أعماق أهدأ الصدور ، فاذا ما اشتعلت لسبب ما ، صارت عنيفة وربما أعقبت نتائج وخيمة . وفى الحق أنى أعتقد اعتقاداً صادقا فى الله ، وفى كل مايلقيه علينا من المبادىء ، فهل أعترف بها ؟ أعتقد فى القلوب المحطمة ، وفى احتمال الموت نتيجة للحب الخائب ، وأظن أن هذا الحب الخائب مرض قابل للشفاء عند الرجل ، ولكنى أعتقد تماماً أنه كثيراً ما يؤدى بغادة جميلة الى موت مبكر .

خلق الرجل للـذة والطمع ، تقوده طبيعته الى الكفاح والجلبة فى هذه الدنيا ، وما الحب عنده الا الحلية التى يزين بها شبابه الأول ، أو هو الأنشودة التى تلقى بين فصول حياته . يبحث عن الشهرة ، يبحث عن الثروة ، يبحث عن التسلط على اخوانه بنى الانسان ولـكن حياة المرأة كلها قصة حافلة بالعواطف ، القلب هو دنياها ، وبين ثناياه تبحث عن السلطان ، وفى أعماقه تطمع فى الحصول على الـكنز المخبؤ . تبعث بجنانها فى رحلات الحب الخطرة ، وترسل كل روحها فى سفينة الحب ، واذا ما أغرقت صارت قضيتها لا أمل فيها لأنهـا إفلاس للقلب .

أما الرجل فربما أُرت فيه خيبة الحب ، وسببت له آلاما مبرحة . فتكلم بعض احساسات الحنو عنده ، وتميت أمل الاخلاص فيه ، ولكنه مع ذلك يظل رجلا عاملا حياً — يبدد آلامه الفكرية بين مشاغله المتنوعة ، أو يلقى بنفسه فى تيار من السرور ينسيه آلامه . وإذا كانت خيبته شديدة الوقع ملأى بالآلام المبرحة ، فما أسهل عنده — بارادته القوية — من أن يريح نفسه من عناء مثل هذه الحياة ، تاركا وراءه عالما سهله شقاء .

ولـكن حياة المرأة هى حياة الوحدة والتفكير . أفكارها وإحساساتها هما خير رفيق لها ، واذا أصاب تلك الأفكار نوبة من الحزن ، فأين تبحث المرأة عن السلوى ؟ فاذا كانت غير سعيدة فى حبها ، كان قلبها مثله مثل تلك القلعة الحصينة التى هوجمت وسلبت ، ثم تركت قاعا صفصفا .

كم من العيون التى تضىء لحظاتها ببريق الحياة قد أمست كليلة ، وكم من الخدود الموردة التى كان يترقرق فيها ماء الشباب قد حال لونها الى الاصفرار ، وكم من قوام مائس يغار الغصن من اعتداله ، قد انزوى فى ظلمة القبور ، ولا يدرى أحد سببا لانطفاء شعلة هذا الحسن ، وكما تضم الحمامة جناحيها لتخفى السهم المريش الذى نشب بين ضلوعها ، كذلك طبيعة المرأة تخفى عن العالم ماتحتويه نفسها من آلام الحب المـكلوم . المرأة مخلوق لطيف ، ولذا كان حبها دائماً صامتاً خجولا ، وحتى لو كانت سعيدة فى حبها ، فانها قلما تبوح بسعادتها حتى لنفسها . واذا كان نصيبها الخيبة فانها تدفن حظها العاثر فى أعماق صدرها ، وهناك تحتضنه ويشب بين خرائب سلامها ، فتعتقد أن رغبة قلبها قد فشلت ، وأن كل بهجة فى الوجود قد زالت ، فتهمل كل ما يسبب سرورها ويجلو صدأ روحها الحزينة ، ويبعث الحياة المشرقة

البهيجة خلال عروقها . ويتسمم نومها العذب بأحلامها المفزعة ، ويمتص الحزن عصارة قلبها حتى يتأثر هيكل جسمها الضعيف بأقل إصابة طارئة ، انظر اليها بعد قليل تجد الصداقة تبكى انهصار عودها الباكر ، وتعجب من أن تلك التى كانت تتلألأ بنور الصحة والجمال ، سرعان ما يضمها القبر وظلامه ، واذا سألت عن سبب ذلك الموت المبكر فسيخبرونك بأنه قشعريرة برد أوأى مرض آخر عادى . هذا بينما يجهل الجميع المرض الذى تغلغل فى عقلها ، وامتص عصارة حياتها ، وسهل وقوعها فريسة بين براثن الموت .

مثلها كمثل شجرة غضة ، هى فخر وجمال للغابة ، جميلة فى منظرها ، تضىء أوراقها الخضراء ، بينما يفتك الدود بقلبها ، فنراها تذبل فجأة حين نأمل أن نجدها ناضجة خصبة فتساقط أغصانها على الأرض وتتناثر أوراقها الواحدة تلو الأخرى حتى يصيبها الدمار والهلاك ، فتسقط وسط سكون الغابة . و إذاتأملنا فى هذه الأنقاض الجميلة فاننا نجاهد عبثا أن نتخيل أى زوبعة أو عاصفة أمكنها أن تودى بها وتهلكها .

ooo

شاهدت أمثلة كثيرة لنساء دفعن بأنفسهن نحو التلف والاهمال ، ثم اختفين تدريجيا من عالم الوجود كأنما صعدن الى السماء ، وظننت أنه يمكننى أن أقتفى اثر موتهن بالرجوع الى الادواء المختلفة التى سببت هلاكهن ، كالبرد ، أو الضعف الجسمانى ، أو الحزن ، حتى وصلت إلى الأعراض الاولى من الحب القانط . ولكن مثلا من هذا النوع قص على أخيرا ، واشتهرت حوادثه فى البلد الذى وقع فيه ، سأدلى به هنا كما روى لى تماما .

ooo

لاشك أن كلا منا يذكر مأساة الشاب (١) المجاهد الارلندى ، فانها مؤثرة جدا لدرجة أنها لايمكن أن تنسى سريعاً . ففى أثناء المحن التى عانتها أرلندا حوكم هذا الشاب بتهمة الخيانة ، ثم صدر عليه الحكم بالاعدام ونفذ فيه ، وكان لمصيره هذا رنة حزن وأسف لدى الرأى العام ، لأنه كان المثل الأعلى للشباب المتوقد الكريم الشجاع ، وكان فيه من الخصال كل ما نحب أن يكون فى الشاب ، كما كان سلوكه أثناء المحاكمة والتنفيذ مجيداً جريئا ، وسخطه القليل الذى درأ به عن نفسه تهمة الخيانة لوطنه ، ودفاعه البليغ عن اسمه ، ورجاؤه المحزن إلى الخلف فى ساعة استشهاده بأن يتعقبوا آثار جهاده — كل هذه

أثرت تأثيراً عميقا فى كل القلوب الـكريمة التى حوله ، حتى أن أعداءه استنكروا وأسفوا للسياسة الشديدة التى أملت حكم إعدامه .

٭٭٭

من بين كل تلك القلوب التى أسفت لموته ، كان يوجـد قلب من الصعب جداً أن نصف مبلغ حزنه ، ففى أيام سعـادته الأولى نال محبة غادة جميلة كانت ابنة لأحد المحامين الذائعى الصيت ، أحبته بكل مافى قلب المرأة من جذوة وحماس حين تحب لأول مرة ، ولـكن حين أصابته يد الزمن ، وأظلم الجو حول اسمه بظلام العار والخطر ، ونظم كل قانون ضده ، كان حبها له أكثر جذوة واشتعالا ، وذلك لآلامه التى يعانيها ، وإذا كان مصيره الذى لقيه قد أوقظ الرحمة والعطف حتى فى قلوب أعدائه ، فلنتصور مبلغ ألم تلك التى ملأت صورته كل روحها ! ولأجل أن تتصور مبلغ مثل هذا الأسى ، دع شخصا يقص عليك كيف أغلقت أبواب القبر فجأة بينه وبين أحب مخلوق لديه على وجه الأرض . وكيف يجلس على مدخل القبر كشخص أصبح وحيداً فى دنيا قاحلة رحل عنها كل ما كان جميلا محبوبا لديه .

ولـكن لنتصور فزع ورعب مثل هـذا القبر المخيف الشائن ! أليس فيه من ذكرى جميلة يمكن للذاكرة أن تسكن اليها ، فتخفف من وطأة ألم الفراق ؟ لا شىء من تلك المناسبات اللذيذة ، ولو أنها محزنة تحبب منظر الوداع — ولا شىء يذيب الحزن إلا تلك الدموع الرطبة المباركة التى تتساقط كالندى من السماء ، أو تنعش القلب فى ساعة الفراق المؤلمة .

ومما زاد فى ألم وحدتها ، أنها تسببت فى استياء والدها باخلاصها التعس ، فطردت من منزل والديها ، ولكن إذا أمكن أن يخفف العطف وشفقة الأصدقاء من هول الصدمة التى صدمت بها هذه النفس الحساسة ـ فانه لم يؤثر فيها مطلقا عزاء ما ، لأن الارلنديين شعب كريم الاحساس سريع التأثر . وقد أحاطتها العائلات المثرية الراقية بكثير من العطف والحنو فأخذتها إلى المجتمعات وحاول الجميع بأنواع من التسلية والمسرات أن يبددوا كآبتها ويزيلوا عن ذاكرتها مأساة حبها ، ولـكن ذهبت جهودهم كلها ادراج الرياح ، إذ كثيراً ما تقسو صدمات النكبة حتى تتلف وتحرق نفس الانسان ، ثم تنفذ إلى مبعث سعادته فى الحياة فتجعله هباء ،

بحيث لايرجع لنضارته مرة أخرى . وما كانت لتعارض فى زيارة أماكن السرور ، ولكنها تكون فيها وحيدة كما لو كانت فى أعماق خلوتها ، فتسير شاردة الفكر فى خيال محزن ، لا تشعر بما حولها من دنيا صاخبة ، تحمل فى ثنايا نفسها حزنا عميقاً باطنياً يسخر من كل مجاملات الصداقة .

وإن الذى قص على قصتها سيدة رأتها فى إحدى حفلات التنكر ، وما كان ليوجد مظهر يؤلم النفس ، يقابله الانسان فى مثل هذه الحفلات أكثر من هذا الشقاء وهذه التعاسة المجسمة — تروح هنا وهناك كالخيال ، وحيدة كئيبة ، بينما الكل حولها ممتلئو بهجة — ترتدى كل زخرف من الملبس بينما هى شاحبة اللون شاردة الفكر من الحزن . كأنها تحاول عبثا أن تخدع قلبها المسكين بأن تنسيه - ولو لحظة - مابه من مبرح الحزن .

وبعد أن جالت خلال الغرف الفخمة والمجتمع الحافل ، وهى شاردة العقل ، جلست على أحد مقاعد الموسيقى ، ثم دارت بنظرها فى الفضاء برهة بعين زائغة — مما أظهر أنها غير شاعرة بما حولها من المناظر البهيجة — وبدأت ، بكل ما فى قلبها المريض من رغبة تنشد أنشودة حزينة . وقد كان صوتها الطبيعى حاراً ولكن فى هذه اللحظة كان هادئاً ومؤثرا كأنها تنفس عن روحها ما فيها من الأسى ، حتى أنها جذبت نحوها جمعا صامتاً ساكناً تترقرق فى مآقيه دموع اللوعة .

ooo

أثارت قصة هذه المرأة المخلصة الحساسة اهتماما كبيرا فى هذا القطر المشهور بالتحمس . فأحبها ضابط شجاع حبا ملك عليه كل قلبه ، إذ شعر بأن هذه المرأة التى تفانت فى إخلاصها للميت، لابد أن تصدق فى حبها للحى؛ ولكنها أبت عليه إباءً تاما كل محاولاته ، لأن كل أفكارها كانت مشغولة بذكرى حبيبها الراحل . ولكنه مع ذلك استمر فى تحببه إليها ، فتوسل إليها — لا بحنانها — بل باحترامها الشخصى ، وساعده على ذلك اعتقاده بكفاءته الخلقية لها ، وحاجتها إلى عائل تعتمد عليه ، لأنها ما كانت تعتمد إلا على معونة الأصدقاء ؛ وباختصار نجح أخيرا فى نوال يدها ، ولكنه تأكد تماماً أن قلبها لا يزال ملكا لغيره كما كان .

أخذها معه الى جزيرة صقلية مؤملا أن تستفيد من تبدل المناظر، وتزول عن أفكارها

أحزانها السابقة ، فكانت مثال الزوجة الوفية المحبوبة ، وبذلت كل جهدها لتستعيد سعادتها ، ولكن لا شيء أمكن أن يشفى هذه الكآبة الصامتة المضنية التى تغلغلت فى أعماق روحها . وساءت حالها من الحزن تدريجياً حتى واراها القبر أخيراً ، فذهبت ضحية قلبها المحطم .

***

وفيها كتب « مور » الشاعر الأرلندى المعروف هذه الأبيات :

هى بعيدة عن الأرض التى ينام عليها بطلها الشاب
والمحبون حولها يتألمون
ولكنها تشيح عنهم بنظرها وتبكى
لأن قلبها يضطجع فى قبر حبيبها

تغنى الأنشودة الموحشة لوطنها المحبوب
وهى التى كان حبيبها يحب كل نغمة منها
آه ! قلما يفكر الذين يطربون من شدوها
كيف يتحطم قلب هذه الآلة التى تشدو ؟

لقد عاش لحبه ، ومات من أجل وطنه
وكانا هما كل ما ربطه بالحياة
فسوف لا تجف دموع وطنه بسرعة
وسوف لا تبقى حبيبته بعده كثيرا

حسن شريف الرشيدى

الروحانية الحديثة

رد على رد

للأستاذ عبد الواحد يحيى

لو كان الأستاذ فريد بك وجدى، قد قرأ ما كتبناه منذ عشر سنين تقريباً عن موضوع «الروحانية الحديثة» فانه ما كان ليكلف نفسه عناء جمع هذه الملاحظات التى كتبها فى الجزء الماضى من هذه المجلة ، لأننا أجبنا عن كل منها إجابة تامة ، وأكثر إسهاباً مما يمكننا ذلك فى هذه الصفحات القلائل . ومع ذلك سنحاول هنا ثانياً ، أن نحدد مركزنا فى مثل هذا الموضوع حتى لا يبقى مجال آخر لذلك الاضطراب الذى نشأ من هذا البحث .

ينبغى علينا أولا أن لا ننكر أنه منذ ابتداء ما يسمى بالعصور الحديثة — أى منذ ثلاثة أو أربعة قرون — شك الغربيون فى كل معارف القدماء ، ولكن ذلك إنما حدث لأنهم لم يدركوا تماماً معنى وطبيعة هذه المعارف ، وفى نفس الوقت يظهر أنهم لم يستطيعوا أن يقبلوا أى شىء خارج عن دائرة التجاريب الحسية ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك ، ظهور وانتشار المادية واتساع دائرة البحث اتساعاً غير عادى فى بعض علوم خاصة تختص بالمادة فقط . وقد كان هذا فى الغرب فحسب ، أما الشرق فانه لحسن الحظ لا يزال محتفظاً للآن بمعرفته القديمة ، ولم يقبل هذه الحدود المتعسفة ولم يستسغ أيضاً تعاليم فرنسيس باكون أو تعاليم ديكارت ، التى لا توضح شيئاً ما للعقول الشرقية النقية ، أى التى لم تتأثر بسموم الأفكار الغربية .

والآن ، إن فكرة محاربة المادية المنتشرة فى الغرب بواسطة العلم المادى نفسه ، هى فكرة خاطئة ولا تؤدى الى نجاح ما ، لأن هذه الوسائل ليس لها من قيمة إلا فى دائرة خاصة ضيقة جداً ، وإذا تعدتها تكون عديمة القيمة . ويظهر أن هذه الفكرة نشأت من توهم أن مثل هذه الوسائل هى الوحيدة « الوسائل العلمية » التى يمكن الاعتماد عليها فى محاربة المادية ، ولكن هذه أيضاً أوهام غربية . وفى الحق ان لدينا علوماً أخرى لا تقل فى أهميتها وحقيقتها عن سابقتها ، تستخدم وسائل مخالفة تمام المخالفة ، غير معروفة للغربيين الحديثين .

وإذا قلنا ذلك ينبغى أن نميز بين حقيقة مسألة الظواهر الشاذة التى نتحدث عنها هنا والتفسيرات المختلفة التى أعطيت لها هناك ، وإننا لنستغرب جداً أن الأستاذ فريد بك وجدى لا يزال يصر على النقطة الأولى (الظواهر) لأننا قلنا أنفسنا إن حقيقة هذه الظواهر لا تقبل الشك وإنها كانت معروفة فى كل العصور وفى كل الأقطار ، فان مثل هذه الحقائق شائعة الوجود وليست نادرة ولها من الأنواع ما يكثر عما يدركه الغربيون « الروحانيون الحديثون » أو غيرهم من الذين يحاولون دراستها .

وإننا لنأسف على أن الأستاذ فريد بك وجدى — فى هذه المسألة — يعدد كثيراً من أسماء العلماء الأوربيين والأمريكيين الذين اشتركوا فى هذه الدراسة كأننا ملزمون أن نقبل ما يمليه علينا هؤلاء العلمـاء . وإننا نأسف لأننا لا يمكننا أن نسيغ للشرق أن يعتقد أنه ملزم بأن يتبع الغربيين ويتقبل تعاليمهم ـ وخاصة فى أشياء لا تزال حقيقتها معروفة دائماً فى الشرق ـ بينما الغرب ليس إلا باحثاً فيها فقط . وليس من حاجة الى القول بأن الذين يبحثون عن شيء هم الذين لا يعرفون حقيقة هذا الشيء .

أضف إلى ذلك أن الأشخاص الذين ذكروا ليست قيمتهم متعادلة ، فلا يمكننا أن نضع فى صف واحد رجلا «طبيعياً» نقدره حق قدره مثل وليم كروكس مع آخر نعتبره «متجراً بالعلوم » مثل كاميل فلاماريون . كما أن علينا أن نضيف أنه إذا كان بعض الرجال قد قبل « الروحانية الحديثة » فأن كثيراً منهم اختلفوا فى وجهـة نظرهم أو ربما صدوا أنفسهم عن أى نظرية أو تفسير . واننا نجد بين هؤلاء الذين صاروا «روحانيين حديثين» من اشتغل لأسباب لاصلة لها بالعلم مثل سيزار لومبروزو واولفرلودج ، فان الأول اشتغل بها بعد موت والدته ، والثانى بعد أن قتل ابنه فى الحرب . وهذا يظهر لنا أن مثل هؤلاء الرجال — بصرف النظر عن علومهم الخاصة — ضعاف العقول جداً . وينبغى أن نضيف إلى ذلك أيضاً أن بعض العلماء لم يمنعهم تعليمهم من أن يخدعوا بالظواهر المصطنعة كما حدث لوليم كروكس مع وسيطته فلورنس كوك ، وكما حـدث حديثا مع شارل ريشيه فى الجزاير ؛ وحدوث ذلك سهل الادراك جداً لأن هؤلاء الأشخاص — بعيدون عن حدود علومهم — ليس لهم أية كفاءة أكثر من أى انسان جاهل آخر . بل ربما وقعوا فى الخطأ بسهولة أكثر من أى شخص آخر، لأنهم حينذاك يبحثون فى أشياء تختلف طبيعتها

وقوانينها اختلافا تاماً عن تلك التى اعتادوها ، ولأنهم يحاولون استعمال وسائلهم العادية فى هذه الأشياء بينما هذه الوسائل لم توضع لمثل ذلك مطلقا .

وماذا نقول فى ذلك التاجر الغنى الذى كان يتاجر بالنبيذ « جان ماير » الذى مات منذ شهور قليلة فقط ؟ صرف هذا الرجل ملايين عديدة لأنه طمع فى أن يصير يوما ما بابا « الروحانية الحديثة » وقد أثار حرباً بلا شفقة على هؤلاء (الاخوان الدينيين) الذين تعمدوا أن يؤسسوا جمعيات ومكاتب مستقلة واضطروا أن يذعنوا لقوة المال ، وكل ذلك بالطبع تحت اسم « الاخوة ـ الاخاء » وقد أسس هذا الرجل نفسه فى باريس معهداً « علمياً » لغرض إخضاع الباحثين الأحرار ، ونقصد بهم الذين لم يكونوا « روحانيين حديثين » وباستلامهم منه إعانات مالية لم يكونوا قادرين على أن يعارضوا شيئاً من « الروحانية الحديثة » وفى الحق أننا لنجد عاراً فى اضطرارنا إلى التصريح بمثل هذه الأسماء والوقائع على صفحات هذه المجلة التى نزهها عن ذكر مثل هذه الأعمال .

أما الأخطار التى تنتج من « الروحانية الحديثة » فأننا نؤكد للاستاذ فريد وجدى بأن الجنون والحوادث الأخرى التى تنتج منها ليست شاذة بالمرة ، بل كثيرة الحدوث فى الواقع . فاذا قال لنا إنها تحدث لغير المتعلمين أجبنا بأن هؤلاء فى الواقع هم العدد الاكبر بين « الروحانيين الحديثين » فى كل الاقطار . وليس لنا الحق فى أن نترك هؤلاء الناس معرضين بدون وقاية من مثل هذه الاخطار التى تنشأ من انتشار الافكار الضارة ، وهم على استعداد لقبولها بدون فحص ولا روية ، بل ينبغى أن يكون العكس تماماً . ونضيف فوق ذلك أننا لا نظن مطلقاً أن التعاليم الخارجة كما تحصل فى المدارس والجامعات الغربية يمكن أن تحفظ صاحبها من هذه الأخطار البتة ، وذلك لأن ما يسمون بالأشخاص « المتعلمين » أو حتى مشاهير « العلماء » يجهلون تماماً الاشياء التى تبحث هنا .

أما تفسير الظواهر بواسطة مقدرة « الوسيط » نفسه ، فهذا صحيح ولكننا غير ملزمين بأن نقبله أو نرفضه ، لأن بعض الغربيين استساغه . حدث من هذا القبيل أنهم قرروا أشياء — بدون علم منهم — لم تكن مستحدثة بالمرة بل كانت معروفة فى الشرق منذ آلاف من السنين ، ولسوء الحظ نرى أن الغربيين تفهموها فى معنى ضيق جداً لأن معرفتهم بطبيعة الانسان الحقيقية ومقدرته ناقصة ، ولذلك لم يستطيعوا استعمال ذلك التفسير

فى حالات كثيرة يناسبها تماماً ؛ ولا ينبغى أن نذكر أن تلك القوى التى لها نصيب هام فى توليد هذه الظواهر هى قوى عقلية ، بل هى قوى نفسية تختلف تماماً ويتسع مدلولها ومعناها أكثر من الأولى . ولكن ينبغى أن نكرر ثانياً أنها نفسية وليست روحية بالمرة ، مثل تلك العناصر التى يتركها الرجل بعد موته ، والتى ليست لها صلة بالجزء الخالد من كائنه . ونحن إنما نصر على هذه النقطة ـ لأنه ولو أننا أوضحناها سابقاً ـ إلا أن الأستاذ فريد بك وجدى يجعلنا نتكلم عن هذه كأنها عناصر روحانية . وإذا قلنا إن هذه ألطف وليست (من القوى التى فى الجسم) بل (من تلك التى فى عالم الجسم والحس) أى أنها من تلك التى تدرس بواسطة العلوم الطبية الحديثة ، فانها تتسبب من طبيعتها النفسية ، وذلك لأن عبارة (العالم اللطيف) هى ترجمة أدبية للتعبير الهندى الذى يقابل (العالم النفسى) — هكذا يعبر عنه للمقارنه بينه وبين العالم الحسى — ولا يمكن أبداً أن يطابق العالم الروحى .

وعلى أية حال فان القوى التى تعمل فى هذه الظواهر سواء كانت تخص الوسيط نفسه أو أى حى آخر سواه ، أو كانت قوى أخرى خارجية مثل القوى السابحة ، أو قوى تنبعث من أحياء مثل الجن — هذه القوى كما ذكرنا سابقاً ، تقرب جداً من العالم الحسى ويجب أن تعتبر حقيقة من طبيعة منحطة . وفى مثل كل هذه الحالات لا تتداخل القوى العلوية مطلقاً ، ولو أن الأستاذ فريد بك وجدى يؤكد ذلك ، بينما لا يعطينا سبباً معقولا لهذا التأكيد — ونحن مضطرون لأن ننكر ذلك إنكاراً باتاً ، وحينئذ يسقط من تلقاء نفسه كل ما يحتم علينا أن نصدق ظهور شخصية أحد الموتى ، ولو أنه ينبغى علينا أن لا نقرر كذب ذلك مثل ما نقرر إذا رأينا أحد القردة يقلد حركات الانسان . وتستمد هذه القوى مظهر الحس من الأشخاص الذين تظهر بينهم ، ولذا فان الأفكار التى تعبر عنها هذه القوى تطابق تماماً ما يجول فى خاطر الأشخاص الذين يتسمعونها ، وهذا يفسر لنا لماذا تتناقض ما تسمى « الأرواح » بعضها مع بعض : خذ مثلا لذلك ، فبينما تشيع نظرية « التقمص » فى فرنسا إذ لا يعترف بها فى انجلترا وأمريكا . وقد رأينا « أرواحاً » مادية فى بعض الرسائل التى تسلمت فى هولندا منذ عشرين سنة تنكر الخلود وتثبت أن حياة الانسان تبقى بعد الموت على الأكثر لمدة ١٥٠ سنة !

والآن ينبغى أن نضيف ما يأتى : يوجد أشياء لا يمكن أن تخضع لوسائل العلوم

الغربية الحديثة المادية ،ولذا يقال عنها إنها خرافات أو من خيال القدماء بينما هى فى الواقع المنفذ الذى يؤدى إلى نوع آخر من العلوم يختلف تماماً عن العلوم المادية، وهذا العلم القديم هو الذى يجدر بنا أن نسميه بحق العلم الصحيح . وإننا لا نخاف إذا قررنا وجود نفوس بالكواكب وأن لها تأثيراً فعالا على الحوادث الأرضية . ولا نخاف أيضاً إذا اعترفنا — كما علمنا القدماء — بأن العناصر ليست أربعة بل خمسة ، وأنه لايوجد أكثر من ذلك أوأقل . وأن هذه العناصر ليس لها أية صلة بما نسميه الكيميا الحديثة « المواد الأولية البسيطة » لأنها (أى العناصر) ليست أجساماً بل هى تلك التى تكون منها الأجسام .

لا يمكننا أن نعطى أى أهمية — إذا نظرنا إلى المعرفة الحقة — للعلوم الحديثة وهى على الدوام متغيرة غير ثابتة فى تفسيراتها ، فاذا سلمنا بالنتائج العملية التى تنتج من أشياء كثيرة كالكهرباء مثلا بدون معرفة لطبيعتها فلا نسمى هذا علماً، بل يجب أن يسمى فقط صناعة . فلا نستطيع مشاركة الأستاذ فريد بك وجدى فى تفاؤله بنتائج البحوث الغربية التى تظهر لنا كأنها تحاليل لا نهاية لها ظاهرية لا نفع فيها. وبما أننا نرى أن التقدم فى هذه البحوث يؤدى إلى عكس كل ما هو طبيعة روحية ، فاننا لا نشك فى صعوبة بل واستحالة الوصول بهذه البحوث إلى فتح الطريق إلى العالم الروحانى : وإذا افترضنا حدوث ذلك بأى حادث كان ، فان ذلك سيكون نهاية العلم الحديث والمدنية كما يفهمها الغربيون ومع ذلك فمن المحتمل جداً أن يصل الغربيون إلى ذلك . وأخيراً نقول : إن الشرق يجب أن يحتفظ بعلمه الخاص فانه أصدق وأتم وأكثر انتشاراً فى كل الوجود بدلا من تضيق دائرته فى عالم المادة فقط . ولسنا كما يظننا الأستاذ فريد بك وجدى : نعيش فى زمن غير زمننا لأن زمننا يختلف عن زمن الغربيين . فبينما يحلم هؤلاء « بالتقدم » حتى يستيقظوا على صوت إحدى الكوارث — نعرف أن العهد الذهبى كان فى الحق عند ابتداء التاريخ البشرى إذ أعطيت كل المعرفة للانسان فى المبدأ ثم أخذت تختفى عنه تدريجياً بتوالى العصور وتنتقل رويداً من عالم الروح الى عالم المادة . وأخيراً نحن نؤكد أن تلك العقول التى تأثرت بالفكر الغربى سوف لا تزال تتهمنا بأن كل ما نقرره خرافات ولكن ذلك لا قيمة له من جهتنا . وانما نحن نوجه كلامنا هذا ، لا الى مثل هؤلاء الاشخاص ، بل الى الشرقيين الحقيقيين الذين يصرون دائماً على أن يكونوا — كما هو الواجب عليهم — محافظين على الحكمة الأبدية ؟

عبد الواحد يحيى

بيت من الشعر

ينقذ حياة أديب من الانتحار

قصة واقعية حدثت للأديب الكبير

الأستاذ كامل كيلانى

الأستاذ كامل كيلانى ، أديب معروف فى عالم الأدب والثقافة العربية . وهو ينحدر من أسرة عريقة فى المجد ، وادعة هادئة ، تحافظ ما استطاعت على التقاليد الشرقية ، بل تعد مضرب المثل فى التمسك بهذه التقاليد؛ وهم بحكم فطرتهم ومقتضى نشأتهم يألفون الهدوء والسكينة ، بل إنهم يستنكرون الأسفار والارتحال ؛ فلم يتفق لهم ذات يوم أن غادروا القاهرة إلى ما سواها من مدن القطر ، ولست بمغال إذا قلت إنهم يرون الغربة وبعد الشقة فيما يتعدى حدود وطنهم من حى المنشية أو تخوم قسم الخليفة .

ولطالما كانت تجمعنى به الصدفة فى جلسة ممتعة ، فيقص على طرفاً من ماضى حياته وأصل نشأته ، فأصغى إلى حديثه فى كثير من العناية والاهتمام .

ولقد جلست إليه ذات يوم فى ساحة خلوية ، وبمعزل عن الضوضاء ، ومضينا نتجاذب أطراف الحديث فى شتى الشؤون ، إلى أن جرنا المقال — والحديث شجون — إلى ناحية مؤلمة من مفاوز الحياة : فما أن أوغلنا فى هذا الحديث حتى رأيت صديقى ، وقد اربد وجهه وتقلصت أعصابه ، ثم سكت ساهماً يمعن فى التفكير وقد وضع إحدى يديه على جبهته كأنه يجمع شتات أفكاره ، ثم سمعته يغمغم بين شفتيه كلمات متقطعة ، فأنكرت ما رأيت من حالة صديقى ولبثت أنظر إليه محدقاً مستطلعاً ، إلى أن تكشفت لى هذه الغمغمة عن بيت من الشعر : إذ سمعته يقول وقد انطلقت أسارير وجهه :

وإذا صبرت لجهد نازلة   فكأنه ما مسك الجهد

فقلت له : وما شأن هذا البيت والحديث الذى نحن فيه ؟ فقال صديقى كامل وقد اعتدل فى جلسته ونشط للحديث .

لقد كان هذا الشعر سبباً فى انقاذ حياتى ، وأنا قاب قوسين من الموت ، بل هو الذى بعثنى حياً الى هذه الساعة ، حتى أجلس اليك هذه الجلسة ، وأقص عليك هذه القصة ، فسألته فى دهشة : وكيف كان ذلك ؟ فقال أعرنى سمعك . فأصغيت الى حديثه وكأن كل جوارحى آذان تسمع .

قال الصديق : كان ذلك منذ ثلاث عشرة سنة وكان سنى إذ ذاك لا يتجاوز السابعة عشرة . وكانت شقيقتى الصغرى قد تزوجت فى بلدة نائية من بلاد مديرية الفيوم ، ومضى على إقامتها هناك عام كامل . ولقد هبط علينا عامل البريد ذات يوم يحمل كتاباً منها تقول فيه : إنها حامل وإنها أوشكت أن تكون أماً ، فأثار هذا الخبر فى نفس والدتى كثيراً من الاهتمام ، وساورتها المخاوف ، وذهب بها الحنو الوالدى الى أبعد مداه ؛ فأخذت تفكر فى مصير ابنتها — وهى فى هذه الغربة — اذا تعسر بها الوضع أو أصيبت بحمى النفاس . . .

كانت هذه الهواجس شغلها الشاغل صباح مساء ، وهى بين لحظة وأخرى تسألنى وأختى الكبرى أن نسارع اليها وهى فى هذه الكربة فنعود بها الى القاهرة ، فكنت أطيب خاطرها وأزيل ـ ما استطعت ـ بعض ما علق بنفسها من هذه الوساوس ، فكأن ذلك كان يزيدها قلقاً ، ويؤجج فى صدرها وطيس الاضطراب .

وفى صبيحة ذات يوم رأيتها تغادر مضجعها مهمومة باكية ، وهى فى أشد ما يكون من القلق والاضطراب فسألتها وقد هاجنى ما رأيت : ما خطبك يا أماه ؟ قالت إن أختك الآن فى حالة تستدعى الرحمة والاشفاق ، وهى فى أشد الحاجة الينا ، فأسرع اليها ولا تتواكل .

قلت ومن أنبأك بذلك ؟ قالت لقد قضيت طوال ليلتى فى أحلام مزعجة ، تتراءى أمام عينى كأنها حقائق أو مرئيات عنيفة ، وكلها تدور حول تلك البنية النائية ، وما تعانى من المشاق وتتجشم من الصعاب .

قلت : هونى عليك يا أماه فان هى الا أضغاث أحلام تتراءى لك فى نومك بتأثير تلك الانفعالات النفسانية التى تعانينها سحابة النهار فيما يهمك من شأن ابنتك .

قالت : إن رؤياى لا تخطىء ؛ ولا بد من رحيلك أنت وأختك الكبرى فى هذا اليوم. كان ذلك فى أواخر الحرب العالمية الكبرى ؛ وكانت مصلحة السكة الحديد ـ بحكم الاقتصاد

فى تلك الظروف — قد ألغت كثيراً من القطارات حتى لم يبق غير قطارين يقومان ذهاباً وإيابا كل يوم بين القاهرة وبلاد الصعيد .

وكان لا بد للمسافر الى هذه البلدة ان يقطع طريقه اليها متنقلا بين ثلاث قطارات حتى اذا قطع آخر مرحلة من هذه الشقة ، ووصل الى محطة البلدة التى تقيم فيها ، يرى أمامه شقة أخرى يقطعها على صهوات الخيل ، أو ظهور الدواب ، فى ساعة وبعض ساعة .

ولا أطيل عليك الوصف ، فيما عانيناه من المشاق فى تلك الشقة التى كانت أول عهدنا بالاسفار . غير اننى استطيع أن أقول : إننى كنت طيلة هذه المرحلة أفكر فى أختى وقد بدأت أحلام أمى تتمثل لى كأنها حقائق ، حتى لقد ذهب بى الوهم الى حد أننى سوف لا أراها الا جثة هامدة .

هذه حالى وأنا الرجل الشاب الفتى فى ذلك الوقت ، فما ظنك بحالة أختى التى ترافقنى فى السفر ، وقد ظلت طوال الطريق واجمة ساكنة ترسل الدمع كالوابل الهتان .

وما زلنا على هذه الحال من القلق حتى وصلنا إلى حيث نقصد ، ومن ثم انجابت عن أفئدتنا تلك السحب القاتمة ، ولم تعد تساورنا المخاوف .

ولقد فرحت أختى بلقيانا وطمأنت خواطرنا ، وان كانت لم تجد بداً من السفر معنا اذ أنها كانت — كما تحس — على وشك أن تضع حملها بعد يومين أو ثلاثة .

ولم يشأ صهرى أن يدع زوجه — وهى على هذه الحالة — أن تقطع المسافة ما بين البلدة والمحطة على ظهر دابة ، بل استخص أحد أتباعه فى طلب «عربة البندر» وهى العربة الوحيدة هناك التى لا يتحرك « ركابها » إلا فى مهمة خطيرة ، ولا يستطيع احتمال أجرها الا كل موسر واسع الثراء . ورحلنا عند الأصيل فلم ندرك محطة السكة الحديد إلا وقد داهمنا المساء وقد بدأ الظلام يتغلغل فى أحشاء الفضاء ، وقد ضرب بجرانه على الآفاق ، فساورتنى أيما وحشة وبدأت أتلمس الخطر المحدق بنا من جراء هذه المرحلة .

وما وصلنا الى المحطة حتى بدأت بوادر الألم تنتاب الشقيقة اليافعة التى أشرفت على الوضع ولم يكن لها سابق عهد بالحمل .

ففكرنا طويلا فى الأمر ، وقد رأت أختى المريضة المتعبة ألا مندوحة من العودة الى البلد ، وأيدتها الشقيقة الكبرى فى ذلك ، أما أنا فقد بقيت لحظة أفكر وأتردد .

غير انى مع هذا التردد كنت قد احتطت للأمر فيما إذا أزمعنا السفر ، فتركت شقيقتى تستريحان فى إحدى عربات الدرجة الثانية ، وذهبت فى طلب التذاكر للسفر .

وماعدت الى القطار حتى صفرت القاطرة إيذاناً بالتحرك فكنا أمام الأمر الواقع ، ولم نجد بداً من الاذعان لما شاءه القدر . وكان الخطب المحتوم وقد انطلق بنا القطار ينساب كالأفعوان فى جوف الظلام ، وساءت حال شقيقتى عن ذى قبل ، وبدأ الألم يتغلغل فى أحشائها فعمنا الأسى جميعاً ، ولم تبق لنا يد فى رفع الخطر . وكأن الطبيعة قد أحست بما نكابده . فشاطرتنا الجزع وقد اربد وجهها والتحفت السماء بمئزر قاتم من السحب والغيوم .

ووقف بنا القطار فى محطة الفيوم فهممنا بالانتقال الى قطار الواسطة ، وكانت شقيقتى قد خارت قواها ، فلم تعد تقوى على المسير لتدرك القطار الثانى ، فمضينا نعاونها ما استطعنا الى ذلك سبيلا حتى بلغنا غايتنا بشق الأنفس . وما كاد يتحرك القطار حتى بدأ الرعد يقصف ، والبرق يلعلع ، والمطر يتقاطر رذاذاً ، ينذر بالعارض الهتان . وكان هذا التغيير الفجائى فى خلق الطبيعة قد زادنى اضطراباً وزاد شقيقتى وصباً على ما تعانيه من آلام ، فضقت ذرعاً باحتمال الخطب ومضيت أفكر فى مصير المريضة المتعبة اذا دهمها المخاض .

ومضيت أتمشى فى ردهة العربة بخطوات جنونية ، وقد قبضت إحدى يدى أدفع بها فى الفضاء ، كأننى أخاصم الطبيعة مهدداً أتوعد . . . وفى خلال السكون ، وفى غضون ذلك الاضطراب النفسانى الذى يتأجج فى صدرى ، سمعت ضجة عنيفة كادت تتقطع لها نياط قلبى ، فهرعت مهرولا نحو المقصورة التى تقيم فيها أختى ، فرأيتها تتلوى من الألم الممض غير أنها ما كادت ترانى حتى حاولت جهد ما تستطيع أن تتجلد ، فمضيت أستلهمها الصبر وأنا أعللها بكلمات متقطعة ليست بذات معنى ، وأنا لا أجد حولا لى ولا قوة لدفع الخطر .

وما وصلنا الى محطة الواسطة حتى كان الخطب قد ادلهم وتفاقم مصابى ، فندمت أيما ندم على أنى لم أتخلف فى مدينة الفيوم ، وقد شططت فى غلوائى حتى وصلنا الى هذه المحطة التى تكاد تكون قرية لا فندق فيها ولا مثوى للمبيت ، ولكنى مع هذا وذاك رأيت أن لا مندوحة من المغامرة حتى النهاية ، وأن نشرب كأس الجزع حتى الثمالة ، وتعاونت أنا

وشقيقتى الكبرى على حمل الحامل حتى وصلنا بها الى قطار الاكسبريس المكتظ بالركاب ولم يبق فيه قيد أنملة لواقف ، وكانت مقصورة الحريم عند نهاية عربة الدرجة الثانية متخمة بالسيدات اللواتى شعرن بحرج الموقف ، فأفسحن لشقيقتى مكاناً للجلوس .

أما أنا فقد لبثت واقفاً أنظر اليها فى ذهول، وكأن وقع الخطب قد خدر مشاعرى فلم أعد أحس بما أرى وأسمع ، ولبثت ساهماً أهز رأسى أو أعبث بطرف سترتى فى حركة عصبية ، وكان البرد شديداً يهرأ الجسوم ، غير أن حرارة فؤادى كانت تطغى على ذلك الزمهرير فلم أحفل بنفسى ، وانطلقت الى خارج العربة ووقفت أمام الباب بعد أن استوثقت من ارتاجه ثم ألقيت برأسى على حاجز العربة الأمامى وانفجرت باكياً بينما كانت السماء تتفجر بوابل كأنه السيل العرم ، ورفعت وجهى نحو صفحة السماء المتجهمة التى كانت تقذفنى برصاص من البرد كأنه منطلق من فوهة مدفع رشاش ، وانطلقت من صدرى صيحة يأس قاتل ، ولم تكد تنبعث من صدرى تلك الصيحة حتى سمعت مثلها فى داخل العربة ، كأنه رجع الصدى لهذه الصيحة . فقذفت بنفسى إلى جوف العربة أستطلع الأمر ، وقد اخضلت ثيابى بالماء واكمد وجهى بزرقة قاتمة من لفح الصقيع . . ورأتنى أختى على هذه الحالة فتفزعت لمرآى ، وكأنها نسيت ما تعانيه . أما شقيقتى الكبرى فكانت تذوب والهة لمصاب أخويها ، وهى تحاول جهد ما تستطيع أن تغالب الأحزان أو تكفكف الدموع . .

ورأيت شقيقتى تقاوم المخاض كمن يغالب القدر أو يناضل الموت فى ساعة الاحتضار . وملت اليها مؤاسياً وأنا لا أدرى ما أقول ، ولا أعرف أية حيلة لدفع الخطر . ولبثت هنيهة أئن فى صوت خافت ، ثم تسللت خارجا حيث اتخذت مكانى الأول أمام باب العربة غير شاعر بالبرد والمطر . .

وألقيت برأسى على حاجز العربة بعد أن أمسكت بقائمتيه ، ثم غصت فى بحر عميق وبدأت أحس كأنى هابط من علو شاهق ، وقد احتبست أنفاسى بتأثير الصدمة الهوائية من أثر السقوط ، وقد تراءت أمام عينى المغمضتين سهام طائشة من أنوار مختلفة الألوان كأنها الشهب والنيازك . وكان صوت القطار ، فى حركة انطلاقه ، يصل الى سمعى كأنه منبعث من بعد سحيق .

وطفقت أعود الى رشدى تدريجياً غير أنى أكاد لا أعرف كنه المكان الذى يحتوينى

بينما كان شبح أختى يتماثل أمامى، وكأنى أراها بعين المخيلة وقد غالبها المخاض فوضعت حملها فى مكان عام من قطار السكة الحديد، أو ماتت على أثر الوضع والنفاس.

تخيلت هذا الموقف فهالنى وقع المصاب، فانتفضت واقفاً مرتعد الأوصال، وأنا أفكر فيما عساه أن يكون من حالنا لو داهمنا ذلك الخطب، ورأيت أختى – وهى فتاة الخدر ودرة صدف الحجاب – تضع حملها فى قطار غاص بالناس وعلى مرآى من الرجال والنساء، تخيلت كل ذلك ففضلت أن أموت. أدركت كل ما تقدم وأيقنت أن هذه الساعة الرهيبة ستقضى على حياتى، فأشفقت على نفسى من هول ذلك الموقف، وهممت أستعجل ساعتى قبل أن أشهد هذه الفاجعة وعندئذ وطنت النفس على الانتحار.

وما كاد يجيش بنفسى هذا الخاطر، حتى اندفعت فى وثبة عصبية كمن نشط من عقال، حتى وصلت الى حافة المهبط الذى يقع ما بين العربتين. ولم يبق بينى وبين الموت غير قيد أنملة، فما هى إلا حركة ضئيلة حتى أكون قد استويت على الأرض ممزقاً تحت دواليب القطار.

وترويت قليلا، ثم أحجمت برهة، ولكنى عدت فهممت وحاولت أن أقذف بنفسى ولكن صورة شقيقتى تمثلت لى فى هذه اللحظة، فتراجعت خطوتين ثم أسرعت اليها لأتزود منها بآخر نظرة..

كانت أختى قد أشرفت على اللحظة الأخيرة، ولم يبق فى قوس احتمالها أقل منزع. ونظرت إلى ساعتى فاذا هى تنبئنى بأنه لم يزل باقياً على وصولنا الى العاصمة نصف ساعة ولم يبق فى مقدور المتمخضة احتمال لربع لحظة، وعندئذ عاودتنى فكرة الانتحار ووقفت وقفتى الأولى خارج العربة، وقد توترت أعصابى حتى خلتنى سأنفجر كالقذيفة، وقد تفككت أوصالى متناثرة فى الفضاء. وبدأت أعصابى تتأثر بقرقعة حركة القطار التى كانت متزنة كأنها توقيع موسيقى عنيف وبدأت أحس تلك القرقعة المتزنة كأنها تنبعث من رأسى، بل خلت أن كل ما احتوانى من العوالم الطبيعية كان يشارك القطار فى ارسال هذا الصوت الموسيقى المتزن أو تردد صداه.

فالجبال التى تقع على جانبى الوادى، كان ينبعث منها ذلك الصوت، والرعد القاصف الذى كاد يطغى على صوت القاطرة كان يرسل هذه الحركة. والسحب المتكاثفة التى كانت تحجب القمر كانت ترى كأنها ترتطم ببعضها فتحدث صلصلة على ايقاع صوت القطار. وكنت أرى

الجبال كأنها تميد متزعزعة فتطبق علينا من الجانبين ، أو تقذفنا بالصخور والجنادل والسحب ، ستنفجر فترسل الينا النار والحمم .

فثارت فى نفسى تلك الثورة الهائلة ، فاندفعت نحو الهوة بينما كان وميض البرق ينعكس على الأرض التى يطويها القطار، فينير لى طريق الأبدية . وقذفت بنفسى وقد شعرت بشبه اغماء لولا أننى أحسست كأن يداً تجذبنى من طرف سترتى ، فلبثت لحظة معلقاً بتلك القبضة وقد مالت رأسى نحو الأرض . وكأن القطار قد أدرك مصابنا وألم بسر بعض من يحمل، فأسرع فى انطلاقه ، بينما كانت تلك الحركات المتزنة فى القطار تتزايد بتزايد السرعة ، وقد تجلت لى واضحة كأنها أناشيد ترددها الملائكة اوالشياطين ، وكأن هذه الأصوات الموسيقية العنيفة المتمردة تنطق منشدة بيتاً من الشعر تتغنى به الجبال والسماء والخليقة جميعاً على ايقاع صوت القطار ، وكأنها كانت تقول :

وإذا صبرت لجهد نازلة فكأنه ما مسك الجهد

ثبت الى رشدى فرأيتنى أردد هذا البيت على إيقاع قرقعـة دواليب العربات ، وكأن ما كان يصل الى أذنى من هذا الغناء ، هو ما كان ينبعث من صدرى . فتراجعت خطوتين وتلفت خلفى أتبين تلك اليد التى قبضت على سترتى ، فاذا هى أكرة باب العربة التى اشتبكت بجيب السترة فحالت دون سقوطى ، كما نبهنى ذلك البيت من الشعر الى بصيص من أمل .

ونظرت الى الساعة فأدركت أننا على مسافة عشر دقائق من ساحل النجاة ، فأمسكت بقائمتى الحاجز الأمامى أدفعها بكلتا يدى ، وكأنى أستحث القطار على سرعة المسير ، بينما كنت أرفع عقيرتى منشداً بيت الشعر على صوت حركة القطار .

كنت أنشد الشعر ، وأنا أتحرك مضطرباً ذات اليمين وذات الشمال ، وإلى الأمام والخلف بحركة اضطراب القطار فى سرعته . وبدأ القطار يقل من مسيره بينما كانت دواليبه تردد الشعر متباطئة تدريجياً ، الى أن خلتها ترسل آخر أنفاسها فى خفوت وبطء ، وهى تردعجز البيت إذ تقول بصوت متقطع . فـكأنه .. ما .. . مسك .. . الجـ ... هد .

وهنا وقف القطار عند الحرف الأخير . وأسرعت نحو أختى فى لهفة أستطلع أمرها ، فاذا بى أراها بين الموت والحياة ، فحملناها بمؤازرة بعض السيدات الى فناء المحطة ، واستقللنا أول سيارة صادفتنا ، ثم صحت بالسائق قائلا — أسرع الى القلعة ... بأقصى ما تستطيع ...

[البقية فى الصفحة ٦١٦]

الروح وماهيتها

للسيد محمد الحريرى

الروح ! وما أدراك ما الروح ؟

مشكلة الاشكالات ، ومعضلة المعضلات ، وطلسم الطلاسم ، والكنز الذى رجع كل من رام فتحه بخفى حنين . هذا كلام فريق من الناس الذين لم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث والخوض فى هذا الموضوع ، محتجين بقوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) زاعمين أن هذه الآية هى كأمر إلهى بعدم الخوض فى ماهية الروح وكنهها ، مكتفين بالايمان بوجودها اجمالا حسب ما جاءت به الكتب السماوية ، وأن البحث عن ماهيتها ضرب من المحال الذى لا تدركه العقول .

أقول : إذا صح فى غالب الناس هذا الاحتجاج ، فانه قد يستثنى منهم فريق ولو قليل ممن قد أشرف على بعض خواص الروح ، من طرق غير التى وقف دونها الأولون بمجرد عقولهم « خصوصاً فى عصرنا هذا الذى فتح فيه لأهل العلم مفازة لما وراء المادة » اعترف بها الآن الغربيون مجبرين ، بعد أن ذكرها الشرقيون تبعاً لما أشار به دينهم الاسلامى ، وقد توسع فيها بعض خواص الصوفية الأقدمين باصطلاحات صوفية اجمالية لا تفيد إلا من سلك مسلكهم وشرب من منهلهم ، أما الآن وقد تقدم العلم فان فيه من مدهشات ما وراء المادة ما يقرب لغير الصوفية بعض الفهم هذا الشأن الجليل .

وهناك فريق آخر تجرأ على البحث فى كنه الروح بمجرد تصوره المحدود ، ومشاهدته بظاهر حواسه المقيدة .

ففريق الأطباء الغربيين ، قرروا بأن الروح هى الحركة الحيوية الشاملة للدورة الدموية فى الجسم ، وآخرون قرروا بأنها هى الأبخرة اللطيفة المستكنة فى داخل صنوبرية القلب ، والمنتشرة فى سائر أنحاء الجسم . وغيرهم قرروا أن النفس هى الروح وصاروا يبحثون فى آثار النفس الأخلاقية والشهوانية بجميع أنواعها ، واهمين أنهم وصلوا إلى كنه الروح وما هم إلا تائهون فى دياجى ظلمات تلك الآثار والأخلاق والعوائد لبنى الانسان من كل زمان ومكان ، وما أجدر هؤلاء القوم بأن يسموا ما سموه بعلم النفس علم الأخلاق

والعادات فى سائر الشعوب والأمصار ، لأنك لو طالعت كتابا من كتبهم لتعرف حقيقة من حقائق النفس أو الروح ، لخرجت بعد البحث والاستقصاء مع مؤلف هذا الكتاب بنتيجة خلقية فى كل اختلاط مع الغير من آثار النفس فى شتى الانفعالات من غضب وفرح الخ مما أوضحوه ، دون أن تصل إلى نقطة البحث وهى ماهية الروح والنفس .

والحق الذى لا نزاع فيه ، أن الروح هى شىء خارج عن الماده المعقولة ، وغير خاضع لنواميس تلك المادة ، ولا يستطيع العقل بتركيبه المعهود أن يحيط بجزئية من حقيقتها فضلا عن كنهها اذ نفس هذا الفكر هو أثر من آثارها ، وهى المفيضة عليه بموهبة التعقل فكيف يحيط الفرع بالأصل مع خضوع القوى المفكرة لنواميس المادة وخروج الروح عن تلك النواميس ؟

إلا أنه قد يكون فى حيز الامكان ، الالماع إلى ذات الروح بحاسة غير الحواس المعلومة وبادراك غير إدراك العقل ، أو بمعنى أوضح تعلم الروح بنفس ذات الروح فى إحدى حالات سبحاتها وتشعبها من الجسم فى انطلاقاتها وتطوراتها التى جاءت مجملة على ألسنة الصوفية الأقدمين ، دون أن يجدوا من الألفاظ اللغوية والقياسات العلمية ما يمكنهم من تقريب تفهيم كنه الروح لغيرهم .

وسنورد بعضاً من أقوال هؤلاء الصوفية الماضين ، ثم نقارنه بما جد من الاختراعات الحديثة ، مخرجين من بين تلك المقارنة نتيجة تقريبية لتفهم تلك الماهية لمن لم يكن له نصيب فى الانطلاق الروحى .

قال الامام الغزالى عند ما سئل عن ماهية الروح فى كتابه «المضنون به على غير أهله» «إن الروح ليس بجسم ولا عرض ، بل هو جوهر غير منقسم ، قائم بنفسه غير متحيز ، لا هو داخل ولا هو خارج ، ولا هو متصل بالجسم ولا منفصل ، لأن الاتصاف بالانفصال والاتصال والتحيز ، هو للجسمية . وقد انتفت عن الروح ، وذلك ببراهين ثابتة لا جدال فيها ، وأول دليل على أن الروح مخالف لناموس المادة ، أنها تكون فى مكانين مختلفين فى وقت واحد بدليل رؤية النائم فى الرؤيا أنه فى جهة ما يفعل من تلذذ وتألم ، وفى الوقت نفسه جسم هذه الروح موجود فى مكانه النائم به حى ، مما يؤكد أن الروح فيه حالة وجودها فى المكان الآخر ، مما يثبت أن الروح بحكم فطرتها التى فطرها الله سبحانه وتعالى ، لا تحصر فى مكان

كما تحصر المواد . وبما أنه ثبت أنها ليست بمادة فهي غير فانية أو متلاشية ، أى أنها خالدة وقد أجمع الاقدمون على خلودها . أما فيما يختص بخلقها فقد نبه الامام الغزالى الى انها غير مقدرة بكمية ومقدار كالمواد ، لأنها غير خاضعة لنواميس المادة ، وهذا لا ينافى أنها مخلوقة بتقدير ينافى تقدير المادة المعلوم ، وأن لها ابتداء كما جاء فى حديث « إن الله خلق الأرواح قبل الأشباح بألفى سنة » .

وقد ذكر ذلك الامام الجيلى فى كتاب « الانسان الكامل » والأستاذ الدباغ فى كتاب « الابريز » — عند ذكر البرزخ ، وكذلك الامام العظيم محي الدين بن العربى فى كتاب « الفتوحات المكية » بتعبيرات وألفاظ ترجع كلها فى الحصر الى ما أورده الامام الغزالى . إلا أنهم قد زادوا فى بعض ايضاحاتهم عن خصوصيات الروح وتطورها ، وقوة تأثيرها فى الاكوان وغرائب تطوراتها التى يقصر عن ادراكها أعظم عقل ، والتى تقرر أخيراً كثير من أشباهها فى عالم الروحانية الحديثة ، فى مجتمعات علمية فى أوربا وأمريكا ، على يد فطاحل العلماء من الذين لا يؤمنون إلا بما يشاهدون ويمحصون ، واضطروا أخيراً مقتنعين بأن وراء المادة قوة فعالة غير خاضعة للنواميس المعلومة .

كل هذا لم يوصلنا لمعرفة ماهية الروح وهل يمكن مشاهدتها بتلك الحواس الجثمانية أم لا ؟

***

للدخول فى هذا الموضوع طريقان : طريق قديم وهو طريق الصوفية المعلوم من خلوة ورياضة ، وهذه بالأسف لا يمكن لمن اندمج فيها أن يعبر لمن لم يندمج الا بأشياء لا تغنى من جهة الاقناع ، ولا تسمن من جوع .

وأما الطريق الآخر الحديث ، فهو نتائج بحث الروحانية وأثرها مضافاً اليها نتائج وبحث ماوراء المادة : كالكهرباء والمغناطيسية والراديوم وأشعة رنتجن وما شابه ذلك من الأشياء التى نرى آثارها ولم يبين العلم الحديث ماهية وكنه هذه العناصر .

وسنتحدث إلى قراء « المعرفة » الغراء فى العدد القادم إن شاء الله ، عن الطريقين والله ولى التوفيق ؟

محمد الحريرى
بالنيابة العمومية

الشيخ عبد الرحيم

بقلم الأستاذ محمد السيد

عرفته يطلب العلم بالأزهر على نظامه القديم عام ١٩١٦ — وكان فتى أصفر اللون قصيراً ، ضعيف العينين حلو الشمائل ، طيب العشرة . ودامت عشرتنا أياما ثم امتدت إلى شهور ، ثم استطالت إلى سنين . حتى آضت صداقة بقدر ما تسع الكلمة من معنى وما تشمل من حدود . خلطني بنفسه وخلطته بنفسي ، وكنا أعزبين فامتد أمامنا أفق الحياة . وازداد سلطان السعادة . فليس ثمة ولد أو أهل أو ما يعوق هذه السبيل . أو يشوب هذا الرحيق الصافى . بل الكأس المترعة . من الحب . ومن الولاء والاخلاص .

كانت الاحكام العرفية مبسوطة على البلاد ، والسلطة العسكرية قابضة على ناصية الحال تماماً ، والعيون مبثوثة فى كل مكان . والأرصاد واقفة بالمرصاد . فأنفاس الناس عليهم محسوبة . وحركاتهم وسكناتهم محصورة ومعدودة . . والهدوء شامل والحياة راكدة .

لم تكن هذه الحال بالتى أطمئن اليها أو تروقنى ، فأنا ما أزال فى وقدة الشباب . وضحوة العمر . أتعجل الأيام بما تضمره . واستبطىء الاحداث ما فى ضمير الغيب . . وليس من طبعى الاستكانة ولا أطيق الخضوع . . . ولكن الاحكام العرفية والمحاكم العسكرية قد خلقت فى البلاد جواً من الرهبة قاتم الاديم حالكه .

بدا لى أن أنبه مواطنى ، فوضعت قصة لتنشر فيما بعد ، وقد كان التفكير فى موضوعها حينذاك يعتبر جريمة ، فبقيت لذلك سراً مكتوماً فى نفسى وفى المسودات زمناً ما ، فلما استوثقت من صاحبي طلبت اليه مراجعة القصة وتصحيحها ، وسلمته (المسودات) وكان هذا العمل من جانبي بمثابة تسليم عنقى له أو وضع نفسى فى قفص مفتاحه بيده .

على أن هذا الفتى الكريم النفس أبت عليه مروءته ، إلا أن يبادلنى (يداً بيد) فوضع نفسه منى فى موضع أدق .

وما أن أذنت شمس الحرب بالمغيب ودق ناقوس السلام ، وأعلنت هدنة الحرب ، حتى راحت مصر كلها شعلة مشبوبة تعمها الثورة من أقصاها إلى أقصاها .

وساهمت مع المواطنين كافة فى تلبية نداء الوطن وإجابة داعيه . . . ولكن ذاك الفتى الأزهرى لم يقنع بنصيب الكافة ولا بقسمة الجميع . . . بل كان دائماً فى الطليعة والمقدمة . ألقى نفسه فى الاتون المستعر ، واندس وسط اللهب يوقظها بل يشعلها ، غير عابىء بما هو ملاقيه من نهاية معروفه أو موت محقق . . .

وأنت إذا طالعتك مظاهرة ، أو أبصرت جمعاً من المواطنين يؤدون خدمة للوطن ، راعك أنك دائما واجد هذا البطل مع العاملين بل وفى مقدمتهم . . . فان لم تعرفه أعواد المنابر خطيباً ، وإن لم تعرفه الجماعات متكلما ، فقد عرفته تلك الخطوب وهاتيك الاحداث مجاهداً ومجاهداً بالروح ، وبالحياة ، وبالجسد فى سبيل مصر الكليمة ، ومن أجل مصر العزيزة .

وها قد أضرب الموظفون . . . . ثم مضت أيام وأسابيع على هذا الاضراب ، وأخذت الافكار تتجه نحو إنهاء أمد الاضراب والعود إلى العمل . . وكنا نذهب كل مساء إلى الأزهر (معقل الثورة وحصنها) نسمع الخطباء ونستقى الاخبار .

وفى ذات مساء ـ وكان خطيب الليلة طيب الذكر المرحوم (أبو شادى بك) ـ فأشار الخطيب إلى موقف الموظفين المشرف ، ثم استطرد إلى وجوب الاستمرار فى الاضراب ، مشيراً إلى أن هذا عمل طيب له جزاءه الأوفى عند الله والوطن ليس غير ، ثم طمأن الموظفين قائلا : إن السلطة غير قادرة على استبدالهم بآخرين من الشام أو فلسطين مثلا — وفى هذه الاثناء انبرى للخطيب جار لنا (مزارع) يناقشه فيما هى الفائدة من الاستمرار فى الاضراب ، وكانت للرجل حجته ومنطقه ، ولكن الثورة لا عقل لها ولا ضمير ، فما هى إلا لحظة حتى صاح صوت من الحضور — جاسوس ! جاسوس — إضرب يا ولد (مشيرا إلى جارنا المزارع) فتطاولت أيدى الجميع إلى الرجل ، وسرعان ما استعمل (السلاح الاحمر) وكاد الرجل يموت بلا إثم ولا جريرة ، فما والله أن رأيت كأن الارض قد انشقت وبانت عن الشيخ عبد الرحيم قد اندفع إلى الامام صائحا ، ارجع — (ياجدع) ثم ارتمى بكله فوق الرجل يحميه ضربات (الأحذية) والعصى .

كان سواد المصريين لا يريد أن يسلم بنتيجة الحرب التى يرويها الحلفاء . فمن ذا الذى يستطيع أن يصدق أن هذه الأمة التى اكتسحت جحافلها ـ فى مدى ساعات ـ أمنع الحصون وأهم القلاع ، قد غلبت على أمرها وأصبحت مهيضة الجانب مكسورة الجناح ؟

نعم . من ذا الذى يصدق أن هذه الامة التى صمدت أمام العالم أجمع تنازله وتتفوق عليه مدى خمسين شهراً ، تغلب على أمرها حين كان يظن أو يعتقد أنها من النجاح قاب قوسين ؟ حقاً لقد كان من أعقد الأمور وأبعدها عن الفهم أن تسمح بهزيمة ألمانيا .

تحت تأثير هذا الفهم الخاطىء كنا نجتهد أن يُسمع صوتنا فى الخارج ، فتمد لنا الأمم الغالبة يد المساعدة والعون .

كانت تركيا صديقة ألمانيا وحليفتها فى الحرب ، وكان اسماعيل صفوت بك (قومندان استامبول الحربى) ضابطاً تركياً ، كانت السلطة العسكرية قد اعتقلته بمصر فى بداية الحرب وبقى معتقلا حوالى السنتين ، ثم أطلق سراحه ووضع تحت المراقبة ... وللشيخ عبد الرحيم معرفة بهذا الضابط ، فلما أذن له بالسفر إلى بلاده ، طلب الينا أن نوافيه بما يؤيد وجود ثورة فى مصر ، ثم ماذا هى طلبات المصريين ، وما بواعث ثورتهم ، وما أسانيد حقوقهم من تاريخية وسياسية ، وما إلى ذلك ، فجمعنا له كثيراً مما أصدرت الهيئات المصرية والافراد من كراسات وبيانات ونداآت . وكان الحزب الوطنى قد أصدر كراسة يؤيد فيها حقوق مصر من وجهة نظره ، واتصل خبرها بصفوت بك ، وطلب أن تضاف الى ما معه من مستندات ؛ وبحثنا عنها فلم نوفق الى نسختها ، وأصر الرجل ، وأضاف الى ذلك أنه يعتبرها وثيقة هامة لما للحزب الوطنى من سمعة وحسن بلاء فى قضية مصر .

وكان المرحوم على بك فهمى أخو المرحوم فقيد الوطن مصطفى كامل يقطن ضاحية فى خط الزيتون ، وكانت المواصلات التى تربط المدينة بالضواحى معطلة فى هذه الفترة ...

ولكن الشيخ عبد الرحيم قطع المسافة بين (المغربلين) ومنزل على بك مشياً على قدميه وكم كان مغتبطاً حينما عاد فى المساء يحمل كراسة الحزب .

أما الحصول على تلك المستندات فى ذلك الوقت العصيب ، فكان أمراً فى غاية السهولة إذا قيس بما لاقيناه من عنت الخوف على فقدها ، أو بالحرى على وقوعها فى يد السلطة ، غير أن الحاجة تفتق الحيلة .

فقد عمد هذا (المجاور) الى طريق سهلة سرب بها تلك المستندات — ذلك بأن وضعها بين حوائط حقائب السفر الخشبية التى أعيد طلاؤها بالورق المنقوش مرة أخرى .

وما انبلج فجر سنة ١٩٢٠ ، وكاد نهارها يطلع ، حتى كان الشيخ عبدالرحيم قد بلغ سن

الرشد (القانونية) وباع ما خلفه له أبوه من (طين) وكانت بضع فدادين باقليم الدقهلية ووضع الثمن حساباً جارياً (بالبنك).

وأعقب ذلك أن غير الشيخ عبد الرحيم زيه، أو بعبارة أخرى قد انقلب (أفنديًا) من الطراز الأخير، ثم استكمل قيافته الجديدة، بأن اشترى (عوينات) ذات سلسلة ذهبية مدلاة ومثبتة فى طرف (الجاكتة).

ساورنى القلق وأخذتنى الشكوك، وأصبحت أخوف ما أكون أن تضيع دراهم هذا الصديق فيما لا يجب أن تضيع فيه ... نعم خفت أن تزل قدمه فتنزلق الى ما ينزلق فيه أمثاله من الشباب، حين تضع الصدفة فى أيديهم مالا بعد إذ كان لا مال لديهم ولا نشب.

ولكن هذا الشك لم يدم طويلا، ففى أحد الأمسية التى كنا نسمر فيها معاً نتذاكر الأدب ونوادر الظرفاء من الأقدمين والمحدثين، أخبرنى صاحبى أنه قد اعتزم السفر إلى أوربا، وأنه إذا كان يشق عليه أن يغادر مصر فلأنما سيترك فيها صديقاً أو حبيباً أو أخا، هو أنا — سيما بعد هذه العشرة الطويلة والأيام السعيدة التى قضيناها معاً.

لم أتمالك نفسى من الضحك، بل من الاغراق فى الضحك!

أتريد أن تسافر يا (أستاذ) إلى أوربا دفعة واحدة؟ طيب سافر إلى أم درمان! أو الى الشام أو إلى مكة أو المدينة يا شيخ عبدالرحيم، ودع أوربا هذه لغيرك من تلاميذ المدارس حيث لديهم على الأقل فكرة عن أوربا.

لم تبد على صاحبى علائم دهشة أو استغراب لما سمع منى، بل قال ولماذا لا أسافر الى أوربا ياصاح؟

نعم إذا كان ولا بد أن تضيع دراهمك التى لم يكن لك أى فضل فى جمعها، فلتذهب هنا فى مصر ... أو على الأقل فلتذهب فى بلد شرقي ... ثم أين هى الوطنية وأين هو حب الوطن الذى (دوشتنا) به سنين؟ إنى والله لا أرى أن تصرف نقودك فى أوربا حيث ترسل بها بعد أيام أو سنين قنابل ورصاص اليك وإلى أهلك:

فقال والله لقد كنت أحسبك تفهم أو على الأقل لا تسىء بى الظنون .. فانى أسافر إلى أوربا لكى أتعلم .. وإذا ضاعت نقودى لهذا فى أوربا، فهى لا تعدل ما أحصل من علم وثقافة ومعرفة، أفيد بها نفسى وأهلى وبلادى.

قلت أتعنى ما تقول . . إنى أظنك تمزح . . قال ولم لا أكون جاداً ؟

قلت أنت أولا لم تحرز شهادات تؤهلك لطلب العلم فى جامعات أوربا والانتساب الى معاهد التعليم هنالك ، إذ يجب أن تكون حاصلا على (بكالوريا) مصرية على الأقل . وعلى فرض أنك وجدت المعهد الذى يقبلك ، فانه لكى تتعلم يجب أن تكون ملماً بلغة البلاد التى تتعلم فيها إلماماً كافياً ، حتى تستطيع أن تفهم بل تستوعب ما يلقى اليك من درس . . . كذلك أنت لا تعرف شيئاً من مبادئ العلوم الحديثة : فالجبر والهندسة والكيميا والطبيعة ، كل أولئك علوم يجب أن تكون ملماً بها .

فهل تظن أن ما حصلته فى الأزهر من علوم العربية والشريعة كاف وحده لما أنت عليه قادم من أمر له خطورته وله تقديره ؟ حقاً ان هذا الذى تزعم دعابة . ولكنها دعابة مرة .

قال . ليست دعابة ، فأنا أريد أن أتعلم ، وأبواب العلم فى مصر أمامى موصدة . . . فعلى فرض أنى قبلت فى المدارس هنا مع سنى هذه ، فانى يجب لكى أحصل على شهادة عليا أن أقضى اثنى عشر سنة كاملة على الأقل ، أما إذا سافرت فان هذه المدة تنقص .

أجبته أنا ، إن هذا ليس تفكيراً بل إنه جنون إذ كيف تعبر النهر دون أن تتعلم السباحة ؟ أو كيف تبلغ قمة هذا المنزل دون أن ترقى سلمه ؟ قال ليس هـذا قياساً ، فأنا أستطيع عبور النهر دون أن أتعلم السباحة ، وأستطيع بلوغ قمة المنزل دون أن أرقى سلمه .

إذن قد اتفقنا لا بأس من أن تسافر وأن تعود ثانياً بعد بضع سنين ، فوالله يا أخى إن مصر فى حاجة أيضاً لمن يتعلم صناعة (العدو)

لم ينفع الجدل ولم يثمر الاقناع ، وسافر صاحبى بعد أن ودعته وودعت معه آمالى فيه ، ووصل ألمانيا ، وأقام بها يطلب العلم وهو لا يعرف من لغة أهلها حرفاً واحداً .

تعلم اللغة ومبادئ العلوم وجاز الامتحان التحضيرى ، وانتسب إلى الجامعة ثم فى كلية الطب ثم انقضت سنو التعليم والتمرين ، وها قد عاد ثانياً لمصر ذلك (المجاور) طبيباً وهو الآن طبيب موظف فى (....) ومحبوب من الجميع .

ولعل ما يؤخذ عليه ، أنه عاد متزوجا من أجنبية له منها أولاد ــ ولكن لعل له عذراً وأنت تلوم ؟

محمد السيد

هيكل
بين الطريقة والأسلوب

للأستاذ الشاعر محمود أبو الوفا

طلب إلى الأستاذ الفاضل صاحب «المعرفة» أن أكتب عن هيكل بك لمناسبة كتابه الذى ظهر حديثاً بعنوان « ولدى » وأنا أعلم ما بين صاحب المعرفة وبين هيكل بك من إعجاب متبادل : وليس يجهل صاحب « المعرفة » مابين شخصى الضعيف وبين الأستاذ هيكل من. من ما ذا . . لا أدرى .

ومما لاأشك فيه أن صاحب «المعرفة» طويل ، ولكن حزمه ولا أقول مكره قصير [1]. فهو لأمر ما – لم يكتب أو لم يختر غيرى لهذا الأمر .

لقد أعلن لى فى صراحته ، أنه كان يحب أن يكتب عن هيكل بنفسه ، ولكنه يخشى أن يطغى جانب الحب والاعجاب والصداقة ،على جانب الحق الذى يحرص الحرص كله أن يجعله شعار مجلته ، وليت شعرى لم لم يخش صاحب «المعرفة» أن يطغى جانب «النفور المتبادل أيضاً بينى وبين هيكل » على هذا الحق الذى يحرص الحرص كله أن يجعله شعار مجلته ؟ يالله ! لا تؤاخذنى يا أستاذ عبد العزيز ، فالحق ان هذا كلام له خبىء ، وأنا أؤكد أنك لم تنتدبنى للكتابة عن هيكل الا توريطا ، وأخذ اقرار منى بالتأمين على كل ما تذكره عنه . . وأنت تحاول أن تمنعنى عن غمز قناة هيكل كلما جاءت سيرته ، ولكن لتعلم يا أستاذ ان كتابتى لن تقيدنى بشىء لأن الكلام عن هيكل شىء ، والكتابة عنه شىء آخر ، واذن فسوف أظل أقع فى هيكل على النحو الذى تعرف ، مادام بينى وبين هيكل هو ما تعرف .

على أننى راض بأن أحمل الهوى   وأخرج منه لا على ولا ليا

***

للدكتور هيكل فى الكتابة طريقة خليقة أن تسجل فى تاريخ الأدب باسمه ، فيقال الطريقة الهيكلية – كما يقال – الطريقة الجاحظية أو العميدية أو البديعية أو الحميدية

ولعلها فرصة طيبة ، هذه التى تتيح لى أن أتكلم عن الفرق بين الكاتب من أصحاب الطريقة وغيره من الكتاب أصحاب الأسلوب .

---

(١) إشارة الى قصير المعروف فى قصة الزباء

فالكتاب من هذا الصنف الثانى ، هم الذين ينطبعون على الكتابة انطباعا حتى ليصل أحدهم بكثرة ما يؤلف وما يحبر إلى حد أن يعرف عند قرائه من غير أن يوقع بطغرائه . قد يكون هذا شأن الكاتب ، ومع ذلك فهو مقلد فى صناعته ، محاك غيره فى براعته ، ومن هؤلاء يوجد العشرات بل المئات فى العصر الواحد ، بل فى المصر الواحد ، ولكل من هؤلاء حقه فى الفضل ونصيبه من كرامة الخلود .

أما الكتاب من الصنف الأول ، أعنى أصحاب الطريقة ، فهم الذين يشقون فى الكتابة طريقاً لم يسبقوا إليه ، و يعبدون منهاجا لم يذلله غيرهم ، فهم فى هذا العالم المعنوى ـ عالم الكتابة والخيال ـ أشبه بالرواد والمكتشفين فى العالم الحسى . وهم أشبه بالمشرعين أو المخترعين . وطبيعى أن هذا الصنف لايوجد فى الأزمان إلا افراداً لأنهم يبعثون للحياة كما تبعث الرسل أو الزعماء للناس .

ولا يظنن أحد أنى فى تقسيم الكتاب إلى هذين القسمين مبتدع . كلا ، فأمهات كتب الأدب قد سبقت إلى ذلك لو تتأمل ، ففى كلامها على عبد الحميد أو ابن العميد مثلا تقول : طريقة عبد الحميد فى ترسله ، وتقول أيضاً طريقة البديع أو طريقة ابن العميد الخ من طرق هؤلاء الأعلام . فهذه الكتب المعتمدة الدقيقة ، ما اختارت هـذا التعبير إلا ملاحظة لأن هناك فرقاً بين الكاتب صاحب الطريقة وغيره من الكتاب الذين أسميهم أصحاب الأسلوب ، وأنا أؤكد أن هذ التعبير فى تلك الكتب لم يجىء عبثاً ، وإنما جاء للاشارة الى هذا الفرق بين هذين الصنفين من الكتاب .

ولعله من المناسب الآن ، أن نتوسع نوعا ما فى التنبيه الى هذا الفرق الدقيق الموجود بين لفظتى : الطريقة والأسلوب ، فقد ألبس على كثير من الأدبيين الفرق بين هاتين اللفظتين حتى ظننا بمعنى واحد ، والحقيقة أن بينهما فرقاً دقيقاً جداً ، ولكنه على دقته طويل عريض — إن طريقة الكاتب غير أسلوبه ، والطريقة على النحو الذى نريده ليس معناها الا الروح البيانية التى يمنحها الكاتب الموهوب ليصل بينه وبين الموضوع الذى يريد أن يكتبه ، يعنى هى المادة التى تتكون منها أفكار الكاتب ، أما الأسلوب فهو الأضواء الكشافة التى تصل بين الكاتب وقرائه ، فهو من الكتابة بمنزلة الجمال تحسه القلوب ، وقد تدركه أو لا تدركه العيون . أما طريقة الكاتب فهى فى أسلوبه الكتابى بمنزلة الغاز من

الضوء الكهربائى العجيب ، فأنت ترى أن تعريف الأسلوب على هذا المذهب ـ اذا كان يشتمل على قوة المعانى والمبانى معاً ـ فان طريقة الكاتب يجب أن تعرف بأنها عبارة : عن الأسلوب مضافاً اليه شيء آخر ، هو شخصية الكاتب بكل ما تشتمل عليه من مقومات الشخصيات ، واذن فأثر الكاتب من أصحاب الأسلوب قد يصح أن يكون من عمل يده فقط أعنى من غير دخل لروحانية الكاتب فيه ، أما أثر الكاتب من أصحاب الطرق فانه ليس الا نفسه بكل ما فيها من حياة .

وشيء آخر من هذا الفرق الدقيق الذى يجب أن ننبه اليه فى تحديد هذين المعنيين ، معنى الأسلوب : ومعنى الطريقة : ذلك هو أن الأسلوب قد يوصف بالتعقيد ، ولا يراد من ذلك أكثر مما فى ألفاظه من التعاظل اللغوى ، أوما هو شبيه ذلك من عيوب الصنعة الكلامية ، ومع ذلك فقد يفهم المراد من الكلام كله أو أكثره . أما الطريقة فاذا وصفت بالتعقيد ، فليس هناك الا اضطراب الموضوع على الافهام جميعاً أو فساده البتة ، وهذا طبعاً لا يرجع الا لأن الطريقة هى عبارة عن مادة الأفكار للكاتب بخلاف الأسلوب .

وفرق آخر يحسن أن يذكر ، ولا يصح أن يغفل بحال ، هو أن كاتب الأسلوب يستطيع أن يتنكر ويتخفى فى أى الأساليب شاء ، ولا يكلفه ذلك أكثر من عدم توقيعه على مايكتب ، وذلك بخلاف الكاتب من أصحاب الطرق ، فانه واضح دائما ، ومهما حاول التنكر فلن يستطيعه . لذلك أرى أن « هيكل » من خاصة أصحاب الطرق ، وليس من أصحاب الأساليب خاصة ، ومن هذه الناحية ، نعم ومن هذه الناحية فقط يجب أن ننظر اليه .

إن كل ما قرأته لهيكل ، وكل ما سوف أقرأه له أيضاً ، يؤكد لى أن «هيكل» ليس من الكتاب أصحاب الأسلوب ، وانما هو من أعلام أصحاب الطرق ، ولذلك فان روحه الواحدة تملأ كتبه جميعاً ومقالاته على السواء ، فكأنما هو يأبى أن يقدم لقرائه الا مائدة من صنف واحد ، ولكنها ذات ألوان متعددة ، فهم يلتهمون ما عليها التهاماً ، مرغمين بدافع من اللذة على أن يلتهموه ، وإن أحسوا فى الآخر جميعاً أنهم لم يأكلوا الا صنفاً واحداً من الطعام ، ومن هنا فان هيكل لايستطيع أن يتنكر أبداً . وأزعم أنه لو سكت عن الكتابة سنين ، ثم فاجأ الناس برسالة من انشائه ، لا ستطاع أقل المتصلين بالأدب أن يتعرف عليه ، وأن يقسم أن هذا الانشاء انشاء هيكل ، وأن هذا البيان بيانه . بل لاستطاع يومئذ أن يراهن وهو على ثقة من ربح الرهان .

وماذلك الا لأن طريقة هيكل ، أو بالأحرى مادته فى الكتابة ، تنم عليه وتشف عنه أبداً
ومن الحق أن نقرر أن «هيكل» يستمد طريقته فى كتاباته من الأضواء الثلاثة التى يتصل دائما اتصالا وثيقاً بها ، هى أضواء العلم والفلسفة والفن ، ومن هنا كانت كتابته مغذية للعالم والفيلسوف والفنان ، وكل أولئك بمقدار ، ومن هـذا المزيج العلمى الفلسفى الفنى تكونت طريقة هيكل ، وبعبارة ثانية تكونت شخصيته الكتابية الفذة التى ورثت عن لطفى السيد بك ما ورثته من جميع مؤهلات الكاتب الزعيم ، مضافاً لذلك ما اكتسبه هيكل من بيئته المصرية الفرنسية ، ومن زمانه ومكانه المعروفين لكل معاصر .

إن طريقة هيكل الكتابية اذا لم تكن هى المثل الأعلى للكتابة العربية ، فانى لا أتردد فى القول بأنها الخطوة الأولى الجريئة للمثل الأعلى الذى سوف يصل إليه الادب العربى حتما إنها أحـد المشاعيل المقدسة التى نرى على أضوائها الفرق بين الأدبين : القديم والجديد . إن طريقة هيكل التى أودعها مقالاته وكتبه وعلى الأخص كتابه «ولدى» هى بحق احدى بواكير نوع الأدب العلمى الذى يجب أن يتطور إليه الادب العربى ، لأجل أن يصبح أدبا عالمياً كما كان أو كما يجب أن يكون ؟

محمود أبو الوفا

ذكريات من حياة الادباء

(بقية المنشور فى الصفحة ٦٠٤)

ولك ثلاثون قرشاً . فطارت بنا السيارة تسابق الرياح ، ولكنى كنت أدفعه من ظهره صائحاً — أسرع ... أسرع ولك خمسة وثلاثون .... أسرع ... ولك أربعون قرشاً ... لم يبق غير مسافة قصيرة أسرع — ولك خمسون .

وصلنا الى باب الدار فرأيت والدتى خلف الباب ، فما كادت تراها شقيقتى حتى ارتمت على صدرها ووضعت حملها عند أول درجة من السلم ..

فتنفست الصعداء وقدهدأت أعصابى ، ثم رأيتنى أغوص فى شبه غيبوبة وكأنى أسبح فى الفضاء على زورق من النور ، وقد رأيت الطبيعة وقد تجلت بأجلى مظاهرها فى صورة غادة هيفاء ، وهى تنشد فى أذنى بصوتها الرخيم :

وإذا صبرت لجهد نازلة فكأنه ما مسك الجهد (م . ص)

صفحة انسانية جليلة

من تاريخ الشرق العربى

فى طرابلس الغرب

مرت الآن عشرون سنة تقريبا ، منذ أن قامت الحرب بين تركيا وايطاليا ، وفى النهاية أصبحت طرابلس — بعد أن ظلت تحت الحكم الاسلامى ثلاثة عشر قرناً — ولاية ايطالية .

فى خلال هذه العشرين سنة شغلت ايطاليا بحروب مستمرة مع الطرابلسيين الذين قاوموا استعمار بلادهم مقاومة الأبطال . وما هؤلاء الأبطال إلا احفاد السيد السنوسى ، ولا يجهل أحد مكانة هذا المجاهد فى أنحاء العالم الاسلامى . اتخذ السيد واحة الكفرة كمعسكر حربى له ، وامتد تأثير السنوسيين فى الشمال الغربى من أفريقيا ، وعلى الساحل الشمالى من مصر ، بل وعلى الأعراب الذين يسكنون وادى النيل .

أما واحة الكفرة ، فهى تلك الواحة المستترة فى الصحراء ، وهى تلك التى اكتشفها لاول مرة الرحالة المصرى أحمد حسنين بك . وقد أحيطت بها قبل هذه الزيارة قصص خرافية قيل فيها : إنها مدينة كبيرة مسقفة بالذهب ، وأحجارها من الحجارة الكريمة . ولكن باكتشافها ظهر أنها لا تعدو أى واحة أخرى فى هذه الصحراء الكبرى ، وليس فيها من بناء هام إلا مسجد السنوسى . وتقع هذه الواحة جنوب البحر الابيض المتوسط بنحو ٥٠٠ ميل وغرب وادى النيل بنحو ٦٥٠ ميل . وبهذه العزلة الساحقة صارت بعيدة عن العالم ، وعاش سكانها قروناً طويلة منعزلين تماماً ، لايدرون مايحدث فى العالم الخارجى حيث تمدهم الواحة بكل مايحتاجون اليه لمعيشتهم . وقد كان يوجد قديما طريق تجارى للقوافل بين أفريقيا الوسطى وبين مصر يمر بهذه الواحة ، الا أن النقل البحرى قضى على هذا الطريق كما قضى على غيره من الطرق ، وبذلك فقد سكان هذه الواحة ، فن النقل فى الصحراء ، الذى كانوا يمتازون به ، وزال كل أثر لهذا الطريق الموصل الى الواحات المصرية ثم الى مصر . ونتج من ذلك أن أصبح لايوجد رجل فى واحة الكفرة يعرف أثر هذا الطريق الا سماعا .

علم عرب الكفرة بتقدم الايطاليين لمحاربتهم والقضاء عليهم ، فجهزوا أنفسهم للدفاع ولكنهم فوجئوا بما لم يعلموا عنه شيئاً من المدنية الخارجية ، وهو إلقاء القنابل عليهم من الطيارات ، وقدكان ذلك فى ١٧ يناير الماضى . وبعد ثلاثة أيام احتلت قوة الابل الايطالية المتقدمة التلال القريبة من الواحة ، وبعد تبادل الطلقات النارية تظاهرت القوة بالفرار والتقهقر حتى هجم العرب عليهم من خلف الصخور التى كانوا يحتمون بها ، فأصلاهم الايطاليون نيراناً حامية من مدافعهم السريعة الطلقات ، حتى فنى الكثير منهم . هذه هى الموقعة التى قصها الذين نجوا منها ، ولاشك أن هذه المحنة التى لقيها العرب جعلتهم يفضلون هجر واحتهم ويلجأون إما الى مصر أو إلى السودان مخترقين الصحراء ، فقضوا الليلة الاولى التى تلت هذه الموقعة فى حزم أمتعتهم على ظهور الابل ، وحمل كمية من الماء تلزم لنحو ١٢ يوماً على حساب التقدير الذى أعطاه أكبر السكان سناً ، وهى المدة اللازمة لوصولهم إلى الداخلة أو الفرافرة حيث الماء والطعام متوفران . وبدأ نحو خمسمائة شخص من الأقوياء السير فى طريق القوافل القديم الذى يبلغ طوله نحو ٤٠٠ ميل الى الواحة الداخلة : وبتقديرهم لليوم ٥٣ ميلا سيراً ، يكون محتملا أن يقطعوا رحلتهم فى ١٢ يوماً . لكن هذه القافلة التعسة ضلت طريقها إذ فقدت الأثر بعد ثلاثة أيام ، ولم تكن إبلهم صالحة للسير مدة طويلة لحملها الثقيل من النساء والأطفال والامتعة والماء . كانت القافلة عدة أيام فى صحراء جافة مخيفة لم يكن ينمو فيها حتى حشائش الصحراء ، أو يظهر أى مخلوق حى ، وكان الحر شديداً نهاراً ، والبرد قارصا ليلا : وكلما استمر السير أخذت الابل تضعف حتى اضطروا الى تخفيف أحمالها بالاستغناء عن الاغطية وكثير من الزاد .

ومرت الايام ، الواحد تلو الآخر ، ولم يكن يوجد أى أثر للطريق القديم أو أى أثر حديث للأقدام يهتدون به ، ولكن بفراستهم العربية استمروا يتقدمون نحو الشمال الشرقى حيث يعرفون بوجود الواحات المصرية . وفى نحو اليوم العاشر حين قرب الماء من النفاذ عثروا على آثار السيارات التى استعملت فى رحلة استكشافية بواسطة الامير كمال الدين حسين سنة ١٩٢٣ ، حين حاول الوصول إلى الكفرة من الواحة الداخلة . فأدخل ذلك السرور إلى قلوبهم وظنوا أنهم قربوا من واحة وماء . ولكن الآثار كانت تتجه نحو الشرق ولا تزال الداخلة تبعد عنهم نحو ٢٠٠ ميل . نفد الماء تماماً حينئذ ، فذبحوا بعض إبلهم وشربوا الكمية القليلة التى كانت تختزنها الابل فى معداتها وبدأ الأطفال يسقطون من

الاعياء واضطر آباؤهم أن يتركوهم وراءهم فى الصحراء ، آملين حين وصولهم نجدة أن يرجعوا ويأخذوهم . بلغت القافلة منتهى الجهد والنصب فتفرقت جماعات عدة وظلت أقواها تواصل السير شرقاً بينما الآخرون تفرقوا أشتاتاً فى الصحراء .

وفى الواحة الداخلة لم يكن لموظفى مصلحة الحدود أى علم بما جرى فى الكفرة ، أو أن قافلة كبيرة من العرب تكاد تهلك فى الصحراء . وفى ٢٣ فبراير الماضى جاءت الأخبار من أحد أعراب الداخلة بأن جماعة كبيرة تكاد تموت ظمأ تسير متجهة نحو الواحة ، فلم يتوان عبد الرحمن أفندى الزهير الموظف بالواحة الداخلة ، فى انتهاز الفرصة وأخذ سيارتين كبيرتين من سيارات فورد مصطحباً معه طبيب الواحة الدكتور تقلا قلادة ، حاملا معه كمية من الماء


(عبد الرحمن الزهير افندى الموظف بالواحة الداخلة)


(الدكتور قلادة طبيب الواحة الداخلة)

والبرتقال . وبعد أن ساروا ستين ميلا قابلوا الجماعة الأولى — وهى الاقوى — وتبلغ نحو ٢٤ رجلا وامرأة وطفلا كانوا على وشك الموت ظمأ وجوعاً ، وكان من حسن الحظ وجود الطبيب قلادة حيث أمر باعطائهم الماء والطعام بكميات قليلة . وحين رجعت الجماعة الى الحياة أخبروا الموظفين بأن مئات من العرب يموتون جوعاً فى الصحراء ، فرجع بهذه الجماعة الى الواحة ثم أخذوا ثانياً سيارات كبيرة وجمالا محملة بالماء والزاد ، واتجهوا نحو الغرب لانقاذ الباقى . وبعد أن ساروا أميالا كثيرة قابلوا الجماعات الاخرى فكان بعضها على وشك الموت والبعض يزحف على الارض والبعض الآخر يحتفر قبره بيده . فعملت للاحياء منهم وسائل الانقاذ ، وكان أن نجا من الموت المحقق بواسطة شجاعة هذين الموظفين الباسلين حياة ٤٥٩ شخصاً . ونحن ننشر صورتيهما مقدرين لهما هذه الشجاعة الفائقة ، التى ستظل صفحة بيضاء فى تاريخ الانسانية . (مترجمة)

ضيوف الصحراء

جلس أحمد افندى عبد البر مطرقاً يفكر فى طريقة تمكنه من القبض على عصابة اللصوص التى سطت على منزله ليلا بالعزبة ، فأخذت ما ملكته يدها من حلى وأوراق مالية بعد أن أخلت زريبة المواشى مما كانت تحويه من ثيران وبقر وجموس ، بينما كان بمصر يبيع ما أنتجته الأرض من قمح وشعير .

كان أحمد افندى عبد البر أحد أعيان قريته ، قد قضى زمناً طويلا باحدى المدارس العالية ، وعاد إلى قريته عقب وفاة والده لمباشرة أشغال الزراعة .
وبفضل كده واجتهاده ادخر مبلغاً عظيما ، ثم باع ما تركه له والده من أطيان متفرقة ، فكان مجموع المبلغ ثمن هذه العزبة التى تحوى خمسين فداناً من أجود الأطيان .

كان يقيم بالعزبة بضعة أشهر بين المزارع وحياة القرى الهادئة . ومن حسن حظه أن كانت عزبته بالقرب من احدى الصحراوات التى يقطن بها بعض الأعراب أصحاب العادات الغريبة . فكان ذلك مما يتمم سروره مدة الاقامة بالعزبة .

ثم يحمل ما حصله من ايجار وثمن محصول ويذهب لقضاء بضعة أشهر بمصر بين زوجته الوفية المتعلمة ، وابنه الصغير الذى رزق به بعد ما قطع أمل الذرية .

على هذا المنوال كانت حياة أحمد افندى عبد البر ، ترفرف على بيته السعادة سواء كان بمصر أو بالعزبة حتى أصيب بهذا الحادث الفجائى (حادث السرقة) الذى قطع عليه صفو تفكيره وفيما كان أحمد افندى جالساً فى منزله بالعزبة دخل عليه رجل يقول : لاتؤاخذنى ياسيدى فقد دخلت عليك دون استئذان ، وذلك يرجع إلى أهمية ما جئت إليك من أجله . وبما أنى لم أجد الخادم ، فلم أر بداً من الدخول لثقتى من مكارم أخلاقك .

ونظر أحمد افندى إلى محدثه فوجده رجلا طويل القامة ذا لحية كثيفة يمثل أهل الطرق الصوفية ، إلا أن عصاه الضخمة والرسوم التى على صدره ويديه تدل على سوء سلوكه فى الزمن الماضى . فان ذلك من علامات أشرار الأرياف .

قال أحمد افندى مبتسما ابتسامة مصطنعة وهو يشير إلى أحد المقاعد : تفضل .

ولم يكد الرجل يجلس حتى قال : لقد تألمت جدا ياسيدى لما بلغنى من تجرؤ اللصوص

على سرقتك . وأنا عليوه عبد البارى ناظر هذه العزبة سابقاً ، قدمت اليك لاخبارك بما استنتجته من معلومات عن هذه السرقة .

قال أحمد أفندى : أنا أعلم بأن اللصوص لم يجرؤا على هذه الفعلة من تلقاء أنفسهم ، بل لابد من دسيسة لهم دلتهم ومكنتهم من السرقة .

صحيح أن لكل سارق دسيسة ، خصوصاً لسارق منزلنا هذا ، الذى هو فى حجاب منيع .

ولكن يا شيخ عليوه ، ما هى هذه الدسيسة هنا ؟ أتراها رجلا من الخفراء ، أم من المزارعين ؟ أخبرنى به حالا لأقضى على حياته ، فقد خاننى خيانة لا عقاب لها إلا الموت .

يا سيدى أنا وجل من التصريح باسم من فعل هذه ، إنه ليس رجلا من الخفراء ولا من المزارعين ، بل هو أقرب إلى سيدى من ذلك .

تغير أحمد افندى واصفر لونه وجمد دمه فى عروقه ثم قال : أخبرنى يا عليوه بما تعلم حالا ، أتريد أن تقول : هى خادمة البيت الخاصة ؟

لا ياسيدى ، بل أقرب من ذلك . وهنا اشتد الأمر على أحمد افندى فقال : أتريد القول بأن هذه الدسيسة هى فايدة زوجتى ؟

نعم يا سيدى ، وإنها هى التى دبرت لك هذه المكيدة بواسطة رجل تبادله الحب .

هذا أمر غير ممكن . هب أنها ضحت من مالى فى سبيل من تبادله الحب ، فهل تقبل أن تضحى حليها من أجل ذلك ؟

يا سيدى إنه ليس بعيدا على دهاء النساء الخائنات ، أن تغطى سرقة أموالك بتضييع حليها التى تعاد اليها ثانياً . فقال أحمد افندى : اذن فهل لك أن تخبرنى عن ذلك الشخص ؟

هذا ما لا يمكننى الآن ياسيدى عمله ، غير أنى أتيت لك بمسألة ستتضح لك فيما بعد . وهى أن أحد دائنيك تمكن من أخذ المستند المحول عليه فى مقابل نقود دفعها لمعشوق فايدة ، كما ان ذلك الشخص أخبرنى بأن فايدة أرسلت إليه خطاباً تطلب حضوره بالعصابة لتنفيذ الخطة التى اتفقا عليها ، كما أرسل إليها الرد ينبئها بقدومه ، ولو بحثت جيداً ربما تجد عندها هذا الخطاب .

وهنا تأهب عليوه للقيام قائلا : أرجو يا سيدى أن تأذن لى الآن ولى عودة إليك قريباً وثق بأنى سأبذل كل جهدى فى سبيل اعادة السرقة ، ولايتم ذلك إلا بعد تبليغ البوليس.

قال ذلك ثم خرج ، وترك أحمد أفندى يسير فى الغرفة ذهاباً وإيابا ، بينما كانت فايدة بمنزل ناظر الزراعة .

حانت من أحمد افندى التفاتة نحو السرير فوجد ورقة مطلة من بين الوسائد ، فأسرع نحوها ليكتشف ما تحويه فاذا بها خطاب موجه الى فايدة من عشيقها المزعوم عليوه .

فانقضت الصاعقة على أحمد افندى بعد تلاوته إذ تبينت له خيانة زوجته . وجلس يتطاير الشرر من عينيه ويفكر فى طريقة الانتقام . ثم نادى على الخادم ، فلما حضرت اليه قال .

ألم تعد سيدتك من عند الناظر ؟ قالت : كلا يا سيدى .

فتأهب للقيام قائلا : إذا حضرت لا تدعيها تخرج ، وأغلق الباب دونها حتى أعود .

وفى الصباح دخل ناظر الزراعة فى صحبة من الفلاحين حجرة أحمد افندى ، فوجدوه يسير ذهاباً وإياباً ، غارقاً فى بحار من التفكير ، وقد احمرت عيناه من عدم النعاس فى هاته الليلة .

قال الناظر دون تحية : سيدى ! لقد جئنا اليك لنبشرك بعودة السرقة والقبض على العصابة .

دهش احمد افندى فى بادئ الأمر ، وقال بعد أن وثق بأنه فى يقظة : ذلك يرجع لحسن تدبيرى . ولكن كيف قبض على العصابة بهذه السرعة ؟

لقد وجد خادم المواشى ختما عليه اسم صاحبه ، كما وجد خطابا باسم رجل يدعى عليوه فلم ينتظر أحمد افندى بقية حديث الناظر ، بل قال : عليوه عبد البارى !

نعم يا سيدى . ولما علمت السيدة فايدة بذلك بلغت البوليس وأمرتنا بعدم إخبارك بشيء ، حتى يقبض على العصابة . وحضر ضابط بوليس ومعه جنود ، فأخذوا سيدتى إلى قرية المدعو عليوه عبد البارى ،وهى قريبة من هنا ؛ ولما أجريت عملية التفتيش بمنزل عليوه عبدالبارى ، وجدوا كل ما سرق ، وقد اتضح لنا بأنه رئيس العصابة ، وقد أخبرته سيدتى بأن هذا الرجل كان يحاول التودد إليها ، كما أنه توسل إليها لمساعدته فى العودة إلى نظارة العزبة .

لم يفه الناظر بالكلمة الأخيرة حتى وقع أحمد افندى مغشياً عليه . فأحضر أحدهم قدحاً من الماء ونضح به وجهه حتى أفاق قليلا ، فقال بصوت مختنق بالبكاء : فى ذمة الله يا فايده ، لقد تمكن المحتال من التفرقة بيننا ، وقد جنت عليك يدى دون روية . فصاح الناظر : لم تقول ذلك يا سيدى والسيدة على قيد الحياة وهى الآن بمركز البوليس ؟

لم يستمع أحمد افندى إلى الناظر ، بل نظر إلى رجلين دخلا ضمن خدمه وقال :
أين ذهبتما بفايدة ؟فأجابا : إن المطعونة ياسيدى نعيمة الخادم .
دهش الناظر دهشة شديدة وقال : ما هذه المسألة يا سيدى ؟
لم يلتفت اليه أحمد أفندى، بل استأنف حديثه مع الرجلين قائلا : وأين ذهبتما بها ؟
ذهبنا بها ناحية فى الجبل تعالج سكرات الموت، وقد أشفقنا عليها، وكنا اتفقنا على أن نعيدها إلى منزل أحدنا حتى تشفى لولا أنها توقفت عن ذلك ، وأخبرتنا أنها أرادت أن تضحى بنفسها فداء لسيدتها لما رأتك قد صممت على قتل السيدة فايدة ، وتعمدت النعاس على سرير سيدتها حتى تزعم أنت أنها هى وتقتلها .

فقال أحمد افندى : الحمد لله الذى أنقذ فايدة من النكبة التى كادت تودى بحياتها ولكن كلما خرجنا من مأزق وقعنا فى أحرج منه ، فان فقدان هذه الخادمة أيضاً من المصائب الكبرى ، ثم قال موجهاً القول الى أحد الفلاحين : اذهب يا غنيمى وتجسس عليها عسى أن تأتينى بها أعالجها حتى تشفى .

ذهب غنيمى ، بينما أخذ أحمد افندى يحدث الناظر ومن معه بشأن المدعو عليوه عبد البارى ، وما دار بينهما فى حبك الفتنة .

وبينما هم فى حديثهم ، وإذا بفايدة مع بعض من الجنود ، يحملون السرقة ويريدون تسليمها الى أحمد افندى ، فلما انتهت عملية التسليم ذهب الجنود ، وجلست فايدة تحدث زوجها عن الخطة التى أخطتها حتى قبض على رئيس العصابة .

وقطع على الجميع حديثهم غنيمى وهو يكفكف دموعه حزناً على هذه الخادم التى كانت محبوبة عند الجميع ، لأنها كانت ذات آداب وحسن معاشرة ورقة حديث .

قال غنيمى بعد أن أخرج منديلا ، وكفكف به دموعه : ذهبت يا سيدى لأتجسس عليها ، وقد سرت فى بعض دروب الجبل حتى رأيت أثر الدم ، عندذلك ظننت بأنه افترسها وحش من وحوش الجبل ، ولكن لم أقنط من العثور عليها . فسرت متبعاً أثر الدم ثم بصرت بخيام منصوبة فذهبت اليها ووجدت جماعة من العرب جلوساً ، فسلمت عليهم وسألونى عن شأنى فحدثتهم بحديث نعيمة فقال كبيرهم لأحدهم : اذهب به يا مسعود الى هاته الفتاة المطعونة ، التى التقطناها من الطريق فى مسيرنا بالأمس عسى أن تكون هى .

فذهبت يا سيدى مع مسعود الأعرابى حتى أدخلنى خيمة فيها نسوة من العرب فاذا بنعيمة ملقاة بينهن ، وهن يضمدن جراحها ، ويعطفن عليها غاية العطف ، فوقعت عليها وقلت كيف حالك يانعيمة ؟ ان سيدك آسف كثيراً على ما فعل بك ، وهو يود لو يفديك بأعز ما لديه . فهلم إليه ، وسأحملك على ظهرى إن كان ذلك أدعى لراحتك .

ففتحت عينيهـا نحوى وحركت شفتيها تريد أن تتكلم ، ولـكنها لم تستطع الـكلام . فظلت ناظرة الى بعينيها وتحرك جسدها بأشارات كثيرة فهمت منها أنها تشكر العرب الذين التقطوها ، وأنها غير آسفة على ما أصابها ، فانما هو فى سبيل الحق والمروءة .

فالتفت النسوة إلى ياسيدى ، وقلن لى : إن هاته الفتاة فى خطر عظيم ، وقد لا تعيش أكثر من ساعات ، فاذهب وتدارك ما عسى تريد أن تتدارك . ولذا أسرعت إليك وأخبرتك بما تم فى شأنها .

أصغى أحمد افندى إلى غنيمى ، وقد تولاه الحزن واليأس والأسف . أما فايدة فلم ينقطع بكاؤها من أول حديث غنيمى ، وقالت : ياليتنى فقدت كل شىء ولم أفقد هاته الخادم .

ذهب غنيمى إلى خيام العرب بينما كان أحمد افندى والجميع ينتظرون عودته .

ووجد غنيمى العرب جلوسا حول اتون كعادتهم .

وقبل أن ينتهى من مصافحتهم ، قال موجهاً الـكلام إلى كبير العرب : ماذا فعلت الفتاة المريضة عندكم ؟

أجابه الرجل وقد شاركه بعض الأعراب : يابنى انها فى آخر رمق ، ونحن مجتمعون هنا الآن ، لأننا نتوقع أن تموت فنـواريها التراب . وكم قاسينا من الحزن ياولدى ، على ما أصاب شباب هاته الفتاة !

إن سيدى آت برجاله لينظر ما يصير اليه امرها ، وهو يجد من نفسه عليها اضعاف ما تجدون من الحزن والأسف ، لأنها خادمته الأمينة ، وطالما دأبت فى مرضاته والقيام على خدمته بأوفى وأخلص ماقامت به خادمة لمخدومها .

فقال كبير العرب بلهجة الغضب : هل لك أن تخبرنى عن قاتل هاته الفتاة الذى أودى بحياتها ؟ فوالله أنى ليعنينى أمرها ، ويشغلنى شأنها . فهى نزيلتى وطريحة فراشى ، ولئن عرفت قاتلها لأقتلنه ولأجردن عليه جياد الخيل ومرهفات السيوف حتى آخذ بثأرها منها

بلغ من القوة والمنعة .

قال غنيمى معجبا بشهامة العربى : إننى ياشيخ العرب لا أقدر على جواب هذا السؤال وليس عندى من العلم أكثر من أن سيدها أغير عليها وأحمى لجوارها ، وهو أقدر على البحث عن قاتلها ، ولايطيق صبرا على السكوت عن شأنها . . . إنهاخادمته وفى جواره وتحت رعايته . وها هو بالقرب منا مع رجاله تحت الأشجار ينتظرون عودتى .

وفى هذه اللحظة حضر أحمد افندى ورجاله ولم يكد أحمد افندى يستقر فى مكانه حتى ابتدر غنيمى قائلا .. أين نعيمة ؟

قال ها هى هنا ، مشيرا نحو خيمة النسوة ، فنظر أحمد افندى الى كبير العرب وقال مرلى أن أرها . فقال : بعد تناول القهوة أولا .

أرجو اعفائى من القهوة . وأنا شاكر لك جداً على حسن صنيعك مع الفتاة .

هذه عاداتكم معشر الأغنياء تترفعون عن تعاطى قهوة أمثالنا ، ونحن لانرى احتراما لمن يرفض كرمنا ، فلا بدمن القهوة ان كنت شاكرا لناحقا ، ونظر إلى أحد الأعراب قائلا : جهز القهوة يا مسعود .

وضع مسعود البن فى وعاء من الحديد وأخذ يقلبه على النار ، حتى اذا ما انتهى من قليه وضعه فى هاون ، وأخذ ينقر نقرات مخصوصة ليحضر العرب على الصوت لتناول القهوة ، ولم يكد مسعود ينتهى من عمله حتى هرع العرب من كل فج اليه وغص بهم المجلس ، بينما أخذ أحمدأفندى يتفحص الجميع مستغربا عاداتهم وزيهم .

وأخذ أحمد افندى يقص على كبير العرب حديث السرقة بعد ما أخبروه بأن مرض الفتاة لم يكن من أجل الطعنة بل من الرطوبة الحادة التى أصابتها ليلا بالصحراء .

وبينما هم فى حديثهم وإذا بنعيمة مقبلة عليهم قائلة : تريدون رؤية نعيمة ؟ وماذا ترجون منها وقد فارقت الحياة . وما أتمت العبارة حتى فاضت روحها الطاهرة .؟

عبد السلام سالم عثمان

التعليم الالزامى الناقص
وضرره الذى يلحق الامة

بقلم مدام دى سان بوان
رئيسة تحرير مجلة فينكس

من الناس من يغتر بلفظة التعليم والمنهاج الخلاب الذى يضعونه له ، والخيالات الجذابة التى يؤسسون فكرتهم عليها ، وكيف لا يكون خلاباً ذلك المنهاج الذى يبيد الأمية و يمحو أثرها من سجل الوجود ؟ الحق أنه مضر جداً ذلك التعليم الذى يزعم أنه يدعو الى إطلاق العقول بدون تفريق — بين غبيها وذكيها — الى توسيع المدارك بتعلم القراءة والكتابة .

أجل . إنه لمضر جداً ذلك المنهاج الذى غرتنا طلاوته كما غرتنا مئات الدعوات الى الوئام وكانت نتيجتها الخيبة والفشل .

لنأخذ فى سبيل تبيان مساوئ ذلك المنهاج وعيوبه ، فنرى أن المدنية الحديثة لا تفرق بحال مابين الذكاء والادراك بالمعنى الدقيق ، وهو ما يجب أن يعرفه الجميع ، فالادراك بالغاً ما بلغ من القوة لا يستطيع بحال ما استئصال شأفة ما كمن فى النفوس من غرائز طبيعية أو طبائع بشرية ، بل أكثر من هذا نرى أن الادراك كثيراً ما عرقل القوى الحماسية وهدم من قوى الشعور الانسانية ، وقلل من شأن الملاحظات الهامة .

ونحن إذ نحاول المقارنة الصحيحة بين الأميين و (المتعلمين) فى عرف ذلك المنهاج ، لرأينا البون شاسعاً والفرق بعيداً ولخرجنا بنتيجة سيئة ، ولكنها بكل أسف صادقة إذ يثبت لنا تمام الاثبات أن الأمى يفوق مناظره ويبذه فى مضمار العمل الحر ، وما ذلك الا لأن الامى يعتمد على ماوهبه الله من قوى طبيعية ، وما أعده له من استعدادات شخصية مستعيناً بوجدانه الحى ، وغريزته النقية وادراكه الفطرى الذى لا تعلق به شائبة ، فى الوقت الذى يعتمد فيه مناظره على ماتلقنه من مبادىء مصطنعة وعرفه من معارف واهية لاتقوم على دعامات صحيحة أو أسس متينة وانما تقوم على زخارف من القول وترهات من الاباطيل .

أضف الى كل ماتقدم أن الأمى كثيرا مايكون بعيداً عن محيط الحياة الذى يعج بالشرور البشرية والمساوىء الانسانية ، الامر الذى يسوقه الى السير فى عجلة حياته على وتيرة واحدة وطراز واحد لا ينحرف عنه ذات اليمين ولا ذات الشمال ، وهذا يكسبه جلداً وصبرا وقوة على الكدح والسعى واكتساباً للمران ودراية ، بعيداً عن الغوغاء والضوضاء ، نائياً عما تحتمه تقاليد المدنية الكاذبة ويفرضه منطق العصر الحديث الخلاب .

وأنت اذا رجعت الى هذا (المتعلم) وبمعنى آخر الى هذا الجاهل حقاً ، لرأيت ثم رأيت زهوا كبيراً وشراً مستطيراً ، وغرورا زائدا وصلفاً سائدا ، وليت الامر يقف عند هذا الحد بل هناك ماهو أدهى وأمر ، فمن سوء فى النية الى غدر فى الطوية ، ومن انكار لحقوق الاقربين الى اجحاد لواجبات الآخرين ، ومن بلاء يلحق المجتمع بسببه الى سوس ينخر فى الامة بعمله ، وأنت بين هذا وذاك ملاق بين الامرين داهية دهماء لا تبقى ولا تذر .

فقل لى بربك ماذا تستفيد الامة من هذا الذى يخرج على تقاليد بيئته أوذاك الذى يتنكر أساليب أسرته ؟ وما من ذنب لتلك البيئة أوجريرة لهذه الاسرة الا أنها نشأت فى طهارة الامية وفى نقاء التقاليد الدينية ، وما من شك فى أن العقل أو القلب الامى الذى لم تندس فيه خبائث المجتمع ، ولم تختلط به موبقات الآراء الحديثة أقرب الى الله وأشد اتصالا بعالم الروح من ذلك الذى وقفت التعاليم العرجاء والمعارف البتراء حاجزاً منيعاً بين قلبه وربه وسداً عتيداً بين وعقله ودينه .

كما أنه ليس من شك فى أن اتصال هذا (المتعلم) بقراءة الصحف اليومية التى تثير الشغف حول المجادلات السياسية ، والتى تفيض أنهارها بالروايات القصصية والمهازل التمثيلية ، لمن أكبر الدواعى وأنهض الادلة على أن ما يعلق بذهنه من آثار سيئة يجعله بعيدا كل البعد عن أن ينتج انتاجا صحيحاً أو يعمل عملا نافعاً .

قد يزعم البعض بان الامى يعجز عن ابراز ماتضطرم به نفسه فى صورة بيانية صادقة أو التعبير عما يختلج فى خلجات وجدانه بعبارات منطقية صحيحة ولكن الادلة الناصعة والبراهين الناطقة والاختبارات الصحيحة أثبتت لنا اثباتاً لا يدخله الشك ولا يتأدى اليه الوهن ، أن الأمى أقدر على امتلاك ناصية القول وأبلغ فى انتقاء دقيق الألفاظ وصحيحها ، فى التعبير بلغة ساذجة ، لا أثر للتعمل أو التكلف فيها عن أصدق الاحساسات وأدق

المشاعر . أضف الى هـذا أيضا ، أن زميله « الالزامى » لا يستطيع بحال ما التعبير بتلك البلاغة التى يطلبون .

قد يعترضنا معترض فيقول : كيف تدعين الى الأمية ونحن أمة لها ماض مجيد وتاريخ تليد وعلم عتيد ؟

ونحن نقرر بأن هـذا كله حق ، لـكن اذا كان الاعتراض وجيها فانه عند التحقيق باطل ظاهره الحق ، مثله مثل الشرير يلبس مسوح الوعاظ ، وأنت اذا تغلغلت الى أعمق الأمور ، وسبرت غور الحقائق بمسبار اليقين ، تجلى لك الحق واضحاً جلياً .

فأما الرد ، وأما دفع البهتان بالبرهان وقرع الحجة بالحجة فأمر فى منتهى السهولة لا يحتاج الى كثير تحقيق وتعقيد تدقيق . وهل أحق بالدليل يدحض الدليل وألصق بالبرهان يقرع البرهان ، من القول بأن التعليم الأبتر الذى ينتج هذه الشرور والآثام جدير بأن ينمحى ويموت وتفضله الأمية ، اذا كان ولا بد من هذا البلاء المحتم ؟

*
* *

يجب أن يتعلم الانسان تعليما حقاً بكل معانى الـكلمة ليستطيع أن يهذب نفسه ، والا فالأمية خير وأفضل .

وهذا التعليم الذى نقصده يجب أن يفرق بين نوعى العلم والمعرفة وأن يقيم بينهما الحدود والأوضاع ، لتتأدى الى كل منهما معانيه الحقة ومدلولاته الصادقة .

على أنه مما يؤسف له أنه قد أصبح شائعاً بين الناس ذلك الصنف الذى يعتقد أن مجرد قراءته للروايات أو المذكرات أو الصحف كاف لوضعه فى صف المتعلمين المثقفين .

والتعليم الذى لا يكوّن شخصية بالغاً مابلغ من قوة التماسك ليس فى الاستطاعة مطلقاً أن يؤدى الى نتيجة ما ، مالم يستند الى الدين والأخلاق الصحيحة .

وأخيرا فان الادراك غير الذكاء ، اذ الأول نتيجة التلقين ، أما الثانى فنتيجة الغريزة . وهذا ما سأتكلم عنه فى المستقبل ؟

ف . دى سان بوان


أبواب المعرفة

العلوم والفنون

أسماك كالمناطيد الهوائية

يرى الزائر لحوض تربية الأسماك فى لندن نوعا من السمك يسمى «الفقاق» أى المنتفخ . ويمكن لهذا السمك أن يتمدد ويملأ جسمه بالهواء حتى يشبه فى شكله المناطيد المنتفخة التى يلعب بها الأطفال .

ويتم ذلك بامتصاصه الهواء الذى يمر فى المرىء فينتفخ جسمه كله حتى تصير السلسلة الفقرية فى زاوية قائمة مع جسمه المتوتر .

وطبيعيا تطفو السمكة فى هذه الحالة على سطح الماء بحيث تنقلب ظهرا لبطن كما تظهر فى الصورة وتكون حينئذ تحت رحمة الأمواج والتيارات المائية التى تجذبها هنا وهناك . ولكن زعانفها المتوترة والتى تشبه الشوك فى حالة انتفاخها تحميها من مهاجمة اعدائها .

ولأجل أن ترجع السمكة إلى حالتها العادية تطرد الهواء من فمها ومن فتحات خياشيمها ويحدث من ذلك صفير مرتفع . ويمكن لهذا السمك أيضا أن يملأ نفسه بالماء بدل الهواء ثم يدافع عن نفسه فى هذه الحالة بأن يدفع من فمه فوارات من الماء المختزن فى جسمه .



الفقاقة فى حالتها العادية لايظهر عليها علائم الانتفاخ حينما تغضب لمهاجمة عدوها

ويعيش هـذا النوع من الأسماك فى البحار الدافئة . ويوجد احيانا أنواع منه فى الأنهار الاستوائية .



«الفقانة» وترى فى حالة الخوف أو الغضب منتفخة وممتلئة بالهواء فتتحرك مع تيارات الماء وتشبه فى تحركها المنطاد فى الهواء



إلى اليمين صورة طائر له منقار قوى يستعمله فى كسر البذور الجافة وله شغف كبير بالتهام الحبوب الخضراء

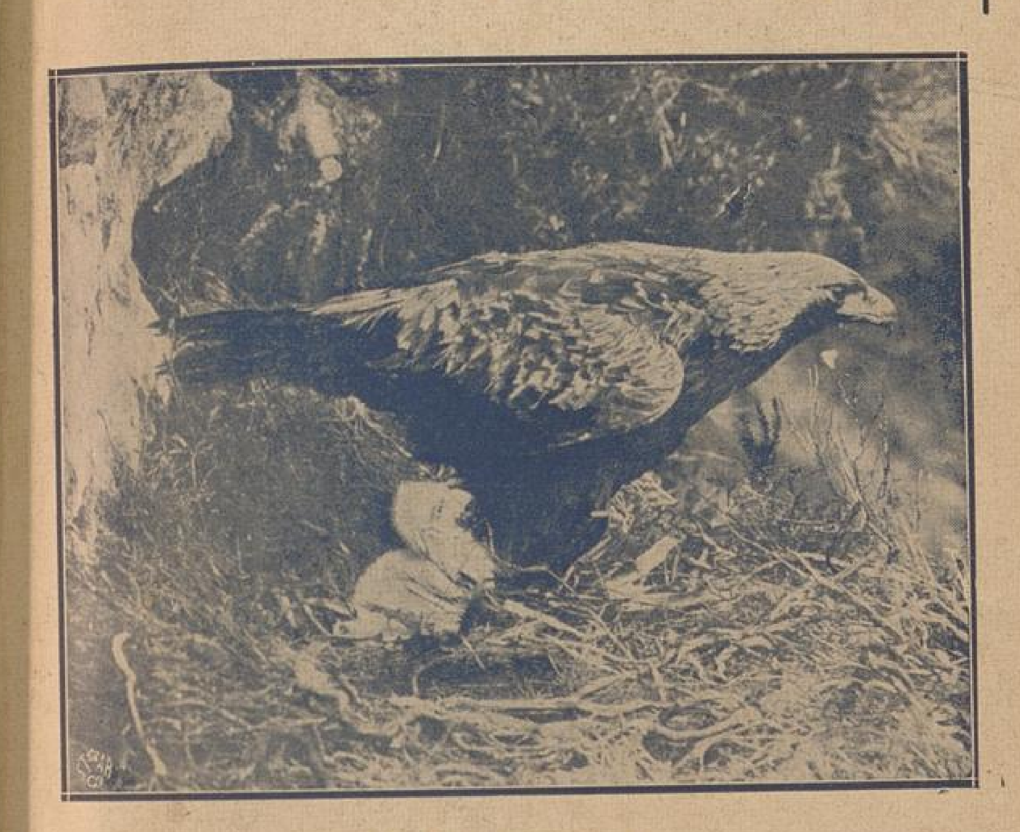
ويلاحظ كبر حجم المنقار بالنسبة لرأس الطائر . ويرى المنقار القوى وبه يستطيع الطائر كسر الحبوب الجافة كاللوز والبندق وغيره .

أمومة النسر

يظن الكثير من الناس ، أن الأمومة قاصرة على بنى الانسان ، وبمعنى آخر يعتقدون أن الأمومة ليس شأنها فى المخلوقات الأخرى كشأن بنى الانسان .

والواقع يخالف ذلك تماما ، ففى كل الحيوان والطيور توجد الأمومة بكل معانى الكلمة . وذلك دليل من أقوى الأدلة على أن الأمومة غريزة طبيعية فى جميع المخلوقات والا لما كان حفظ النوع ممكننا . ويرى القارئ على الصفحة التالية ما يثبت ذلك .

ملكة الجو تحمى صغيرها الوحيد من حرارة الشمس . أخذت هذه الصورة على بعد ١٢ قدما فقط من عش النسر حيث اختفى المصور .



(صوره اخرى لامومة النسر)



يرى الناظر الى اليسار منظراً آخر للأم باسطة جناحيها حول صغيرها لتحميه حرارة الشمس

مملكة المرأة والبيت

أيهما أفضل للمرأة

لا حديث للمرأة الآن إلا ويدور حول جسمها فبينما نجد المرأة الغربية تميل إلى النحافة بل وتبالغ فيها ، نرى المرأة الشرقية لا يستريح لها بال إلا اذا زاد وزنها وترهل الشحم على جسمها . ولكن لم تفكر احداهما فى أيهما لها أكثر فائدة صحية .

والواقع أن هذا الموضوع بحث بحثاً علمياً دقيقا ، حتى انتهى كثير من العلماء الى مايعتبر فصل الخطاب ولتلخيص أحدث الآراء فيه ، نقول : إن الأطفال وصغار السن كلما كانوا أكثر سمنة كانوا أكثر مقاومة للأمراض ، أما الكبار فى السن فيحسن أن يكونوا نحافاً حتى تكون صحتهم على خير مايرام . ولذا يجب أن لا يسعى الفتيات الى النحافة قبل بلوغهن منتصف العمر .

ولتحديد سبب السمنة نقول : إن الطعام الذى يتناوله الانسان ، إما أن يتحول الى حرارة تنبعث من الجسم بالحركة والرياضة ، وإما أن يخزن داخل الجسم بشكل دهن وشحم . ولا يعنى هذا أن الافراط فى الأكل يسبب السمنة ، فبعض الأجسام تستطيع تحويل الطعام إلى حرارة بدون حركة فيظل أصحابها نحفاء .

أما الأفضلية الصحية فقد أجاب عليها العلماء بما يأتى :

إن وزن الجسم يتوقف على العمر ، فالذين جاوزوا منتصفه يحسن أن يكونوا نحفاء حتى يعمروا كثيراً ، كما يشاهد ، أما صغار السن فيحسن أن يكونوا سمان الأجسام حتى يكون لديهم الغذاء الاحتياطى يستمدون منه حاجتهم عند الحركة والاجهاد والمرض أحياناً . ولقد قدرت السن التى تبدأ الفتاة بها لتكون نحيفة ، فوجد أن خير سن لذلك الخامسة والثلاثين أو الأربعين ، أما قبل ذلك فيجب أن تميل الى السمنة .

نصائح للسيدة الحامل

هذا الجنين الذى على وشك لخروج الى الدنيا لهحق كبير على أمه ، وهو من الضعف بحيث لايمكنه المطالبة بهذا الحق — حق الصحة والقوة . أليس من الظلم أن يخرج هذا المخلوق إلى الوجود ضعيفاً لايقوى على مقاومة الأمراض والجراثيم التى تنتشر حوله ؟ ألا يجب على أمه أن تعمل على أن يخرج وليدها متمتعا بالصحة والجمال ؟ إن ذلك فى مقدورها لو اعتنت هى بصحتها وعملت بما سنرشدها إليه من القواعد البسيطة التى لا تحتاج الى إمعان أو تفكير .

من أهم ماتحتاج اليه الحامل هو الهواء النقى البعيد عن الجراثيم، ولذا يجب أن تعمل على تهوية حجرات منزلها دائما . كما يجب عليها أن ترتاض يومياً فى الهواء الطلق بشرط أن لا تبلغ حد الاجهاد ، وخير رياضة للحامل هو المشى على الأقدام على مهل . كما يجب عليها أن تمتع نفسها بالمناظر المسلية المبهجة التى تدخل السرور على نفسها .

أما الأعمال المنزلية ، وخصوصاً ما كان منها شاقاً متعباً ، فيحسن أن تتركها لغيرها ويجب أن تختار ملابسها من الملابس الواسعة ذات الالوان المبهجة ويحسن أن تكون بيضاء ، وأن تتجنب بتاتاً الاحزمة أو أربطة السيقان الضيقة . وكذلك يجب أن يكون الحذاء ذا كعب قصير حتى لايجهدها .

ويجب أن يقتصر غذاؤها على المواد السهلة الهضم، فتكثر من الخضر والفواكه الطازجة وتقلل من اللحم والبيض . وخير غذاء لها أن تشرب كثيراً من اللبن لانه كثير الغذاء وسهل الهضم . ويجب أن يكون غذاؤها ثلاث مرات يومياً ، وأن تتفادى حصول الامساك بأن تشرب الماء بين وجبات الاكل وكثيراً من المشروبات السكرية ، وأن تتعود التبرز مرتين على الأقل يومياً فى مواعيد منتظمة حتى لا يحصل الامساك لانه مضر جداً .

كما يجب العناية بنظافة الجلد ، لافرازه العرق والدهن ، بالاستحمام بالماء البارد صباحاً فى كل يوم ، وبالماء الدافئ — لا الحار جداً — فى المساء حتى تنعم الحامل بنوم هادئ مريح .

كما يجب أن تأخذ نصيبها من الراحة والنوم بأن تذهب مبكرة الى نومها فى المساء . فاذا سارت الحامل على هـذه النصائح السهلة ، فان وليدها ينشأ قوياً ، بينما تتمتع بصحة كاملة فلا تحتاج مطلقاً للذهاب الى الطبيب .

باب النقد والتقريظ

مطبوعات مكتبة القدسى

أذاعت مكتبة القدسى بالأزهر فى هذه الأيام الأخيرة ، باقة عظيمة من الكتب العربية النادرة التى تعودت هذه المكتبة أن تتحف بها قراء اللغة العربية الآونة بعد الآونة ، والتى لا يفتأ صاحبها الفاضل عن اختيارها والتفنن فى إخراجها مطبوعة أجمل طبع ، مصححة أدق تصحيح . والذين يعرفون السيد حسام الدين القدسى ويعاملون مكتبته الصادقة يعرفون أننا لسنا مبالغين إذا قلنا إن هذه المكتبة جديرة بان تعد فى طليعة دور الكتب العربية فى هذا العصر ، فهى علاوة على بذلها المال الوفير والجهد الكبير فى طلب أنفس الكتب وأغلاها لا تدخر أى مجهود فى انتقاء تلك الكتب وتحرى النافع منها والأصلح لمدارك الناس .

وقد أهدانا صاحبها المفضال مجموعة من تلك الكتب الثمينة فألفيناها معجزة فى اختيارها معجزة فى نظافة طبعها معجزة فى تصحيحها . فاذا نحن شكرنا للأديب القدسى تفضله علينا بهديته ، فاننا بلا شك عاجزون عن تأدية مايستحقه مجهود هذا الرجل الفاضل من الحمد والاطراء . فمن هذه الكتب كتاب شرح أدب الكاتب لأبى منصور بن احمد الجواليقى . وكتاب أدب الكاتب هو أحد الدواوين الاربعة التى قال ابن خلدون فيها « إن أصول فن الادب وأركانه أربعة » وذكر اسم هذا الكتاب فى أول ماذكر من ذلك ، ولاشك فى أن كل أدباء العربية جميعا عند ماقرأوا ادب الكاتب كانوا يشعرون بالحاجة السديدة الملحة لضرورة وجود شرح مطبوع لهذا الكتاب الذى لايسع أديب الاستغناء عنه ولذلك فاننا لا نشك فى أن شكر الادباء سيكون مساويا تماما لهذه اليد العظيمة التى تسديها هذه المكتبة لهم ، وإن كان الفضل للمتقدم على كل حال . وكتاب اعلان التوبيخ لمن ذم التاريخ لمؤلفه الحافظ المؤرخ محمد عبد الرحمن السخاوى وكتاب جنى الجنتين فى تمييز نوعى المثنيين وكتاب القصد والامم فى التعريف باصول أنساب العرب والعجم . الى غير ذلك من هذه الكتب التى بحسبنا أن تكون تحفة المكاتب ومرجعا لكل باحث وكاتب ، ولعلنا نعود الى تحليل بعضها إن شاء الله .

طرائف

نظر معاوية إلى يزيد يضرب غلاما فانتقده وأنكر عمله فقال له يزيد : إنما فى هذا إصلاح له : نعم ولكن فيه إساءة لك لأنك تفسد أدبك بأدبه .

***

مر عمر بن الخطاب بأطفال يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير ففروا عن آخرهم وثبت ابن الزبير فى مكانه فقال له عمر :

كيف لم تفر مع من فر من أصحابك ؟ فقال له : ذلك لأنى لم أجترم فأخافك . ولم يكن بالطريق من ضيق فأوسع لك .

***

لقى الحجاج أعرابيا بيده عصا فقال له : ما تلك التى بيدك يا أعرابى ؟ فأجابه : هذى عصاى أركزها لصلاتى ، وأعدها لعداتى ، وأسوق بها دابتى ، وأقوى بها على سفرى ، وأعتمد عليها فى مشيتى ، ليتسع خطوى ، وأثب بها على النهر ، وتؤمننى العثر ، وألقى عليها كسائى فيقينى الحر ، ويجنبنى القر ، وتدنى إلى ما بعد على ، وهى محمل سفرتى ، وعلاقة أدواتى ، أقرع بها على الأبواب ، وألقى بها عقير الكلاب ، وتنوب عن الرمح فى الطعان ، وعن السيف فى منازلة الأقران ، ورثتها عن أبى ، وسأورثها ابنى من بعدى ، وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى ، فسكت الحجاج !

محاسن الشمائل

قسم بعضهم محاسن الشمائل فقال : الصباحة فى الوجه ، والوضاءة فى البشرة ، والجمال فى الأنف ، والحلاوة فى العينين ، والملاحة فى الفم ، والظرف فى اللسان ، والرشاقة فى القد ، واللبانة فى الشمائل ، والبداعة فى الجيد ، والدقة فى الاطراف ، وكمال الحسن فى الشعر .

بين المعرفة وقرائها

مؤلفات الشيخ طنطاوى جوهرى

(اسكندرية . مصر) محمد عبد الرحيم العلايلى ببنك مصر .

هل أتم الاستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى ، تفسير أجزاء القرآن الكريم ؟ وكم عدد مؤلفاته وما أسماؤها ؟

(المعرفة) انتهزنا فرصة تشريف فضيلة الاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى لدار « المعرفة » فعرضنا عليه سؤالكم فاجاب بما يأتى :—

(ا) التفسير : طبع منه حتى الآن ٢١ مجلداً ، وبها وصل التفسير الى آخر سورة «محمد» أى انه انتهى تفسير خمس وعشرين جزءا من ثلاثين من القرآن الكريم . وقد يستغرق تفسير الاجزاء الخمسه الباقية سبعة مجلدات أو تسعة ، فيتم التفسير فى ٢٨ مجلدا أو ٣٠ ، وذلك لرغبة المؤلف والقراء ، فى توفية البحث فى كثير من المعلومات

(ب) المؤلفات وأسماؤها : أما المؤلفات التى تم طبعها فعددها ٢٦ مؤلفاً وهذه أسماؤها (١) جمال العالم (٢) جواهر العلوم (٣) ميزان الجواهر (٤) النظام والاسلام (٥) نظام العالم والأمم (٦) التاج المرصع (٧) الزهرة فى نظام العالم والأمم (٨) نهضة الأمة وحياتها (٩) الفرائد الجوهرية فى الطرف النحوية (١٠) الحكمة والحكماء (١١) جوهر التقوى (١٢) الرسالة القازانية (١٣) مذكرات أدبيات اللغة العربية (١٤) أين الانسان (١٥) صدى صوت المصريين فى أوربا (١٦) رسالة تعدد الزوجات (١٧) رسالة الموسيقى (١٨) سوانح الجوهرى (١٩) ملخص كتاب فنلون (٢٠) جواهر الانشاء (٢١) نظم ملخص كتاب أدب الدنيا والدين (٢٢) رسالة الهلال (٢٣) أصل العالم (٢٤) ملخص كتاب حى بن يقظان (٢٥) الأرواح (٢٦) جوهرة السفر .

تعلم الطيران

قرأت فى العدد الرابع من مجلتكم الغراء فى صفحة « بين المعرفة وقرائها » سؤالا عن الطيران من م . م عشماوى ولما كنت ملماً ببعض الشىء عن هذا الفن وتعليمه لكثرة ما قرأته عنه فها أنا أبادر بنشر ما أعرفه وإن كان ذلك يعد فضولا منى لأن حضرة السائل وجه السؤال للمعرفة لا للقراء :

بانجلترا : توجد مدرسة للطيران فى بلدة هانورث (Hanworth) بجوار لندن وهذه المدرسة تابعة لشركة (National Flying Services) وهى تحت رعاية الحكومة البريطانية وتمدها باعانة سنوية .

ويدفع الطالب ثلاثة جنيهات عن كل ساعة فى التعليم بمعلم يلازمه فى الجو ويلزم الطالب ١٥ ساعة حتى يكون ملماً بدروس هذا الفن ثم يعمل بنفسه منفرداً خمس ساعات ثم بعد ذلك يتقدم للامتحان .

ويوجد بداخل المدرسة نادى كبير يقيم به طلبة المدرسة نظير ٥ جنيهات ونصف فى الأسبوع مقابل السكن والطعام . ولكن للطالب الخيار فى السكن بالخارج وهذه أقل نفقات من السكن بالنادى ومدة الاقامة هناك حتى ينال الطالب رخصة الطيران تتراوح بين شهر ونصف أو شهرين ولا تزيد عن ثلاثة شهور . وعلى العموم فان هذا يرجع الى استعداد الطالب نفسه ولا تقل نفقات الطالب المستقيم عن ٣٥ جنيهاً فى الشهر بما فى ذلك نفقات التعليم بشرط أن يسكن خارج النادى أما إذا سكن بالنادى فأقل من ٤٥ جنيهاً لا يتمكن من الاقامة هناك .

محمد عوضين طه

إذاً وإذن

(دمنهور . مصر) — عبد اللطيف أحمد المصرى . قرأت فى مجلتكم كثيراً كلمة إذن بشكلين : إذن وإذا فتى يصح ذلك ؟

(المعرفة) يراعى فى أواخر الكلم حالة الوقف وقد سمع الوقف على إذن بالنون — أى على لفظها — وسمع بالألف ، حملا لها على المنون المنصوب . فمن وقف عليها بالنون رسمها بالنون ، وإلا فبالألف ، ويحسن كتابتها بالنون فى أغلب الأحيان ، خوف الالتباس .

فهرس المعرفة

الجزء الخامس من السنة الاولى

أبواب المعرفة

طبع بمطبعة الجمالية بمصر

لصاحبها

محمود محمد الشبكشى